لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الضَّالِّينَ(١٩٩)

شرح الكلمات:

كما – تأتي أيضا بمعنى "بما" وضرب سيبويه لذلك مثالا فقال: كما إنه لا يعلم تجاوز الله عنه.. أي بما أنه لا يعلم (البحر المحيط، تحت هذه الآية).

وإن كنتم –إنْ مخففة من إنَّ. ويقول الفرّاء إنها نافية، أما الكسائي فيقول إنها بمعنى قد (المرجع السابق). وهي هنا بمعنى قد.

التفسير: يقول الله تعالى إنه ليس من الإثم أن تبتغوا في أيام الحج فضلا آخر من ربكم. يقول البعض: المراد هنا بالفعل التجارة.

وهذا صحيح عندي، ولكن حصر الفضل في التجارة تحديد لموضوع واسع. الواقع أن من أكبر المصائب على الإسلام اليوم أن الكُفر غالبٌ ومستول على العالم في كل النواحي، والمسلمون مصابون بالجمود وانعدام الإحساس، ولا يتولد في قلوبهم شعور بأن عليهم أن يعملوا لنشر الإسلام بنفس (الجنون) الذي عمل به المسلمون في القرون الأولى، فتمكنوا في فترة قصيرة جدا من جعل الإسلام غالبا على العالم المعلوم عندئذ. أرى أنه تعالى بذكر ابتغاء فضل الله في أيام الحج وجّه النظر إلى أن عليكم كسب منافع وأفضال أخرى من هذا الاجتماع العظيم.. مما يخرج بالمسلمين من قاع المذلة، ويوصلهم إلى قمة المجد. يجب عندئذ أن تتفكروا وتتشاوروا مع الشخصيات الكبيرة ذات النفوذ من بلاد أخرى لوضع مخططات لنشر الإسلام.. بالعمل بها ينـــزل فضل الله تعالى، ويصبح الإسلام غالبا على الدنيا كلها. يجب أن تبتغوا هناك فضلا منه تترتب عليه غلبة الإسلام. وأسلوب الكلام الذي اختاره في قوله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) أسلوب ينبه إلى خير كبير. يقول تعالى: هذه فرصة ذهبية سانحة، فهل ابتغاء فضل الله فيها إثم حتى تتركوا هذا

العمل، ولا تنتهزوها؟ في هذه المناسبة اجتمعتم بهذه الكثرة من كل أنحاء العالم، وهذه فرصة ثمينة، يجب ألا تدعوها تنفلت من أيديكم.

وقوله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) هو كقوله من قبل (فلا جناح عليه أن يطوف بهما) (البقرة: ١٥٩).

(فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام). عرفات ميدان واسع في شمال شرق مكة على تسعة أميال تقريبا. ويجتمع هناك كل الحجيج في التاسع من ذي الحجة. والإقامة في هذا المكان وعبادة الله هناك على درجة من الأهمية بحيث أنه لو أدى الإنسان كل مناسك الحج و لم يقف بعرفات لا يصح حجُّه.

والمشعر الحرام جبل صغير في المزدلفة. يقول الله تعالى، إذا فرغتم من العبادة في موقف عرفات ورجعتم من هناك، فينبغي أن تذكروا الله كثيرا عند المشعر الحرام. ومن سنة الرسول ﷺ أنه كان يدعو الله في المشعر الحرام (المشكاة، المناسك). ولكن الناس عامة لا يدْعون في هذا المكان الآن، بل في العثور عليه صعوبة كبيرة، وهذا ما حدث معي، فقد بذلنا جهدا كبيرا للعثور عليه ولكن لم ننجح، فدعونا هكذا وانصرفنا من هناك. ويبدو أن المشعر الحرام ليس جبلا كبيرا وإنما هو تل، وهناك تلال كثيرة وازدحام كبير من الناس لذلك لا يسهل العثور عليه.

وبقوله (أفضتم) أشار إلى أنكم عندما ترجعون من عرفات يجب أن تكون قلوبكم مليئة بالبركات وفياضة بأنوار من الله تعالى كما يمتلأ الإناء بالماء حتى يفيض منه، وأن تصِلوا إلى المشعر الحرام وأفئدتكم مفعمة تماما من الخمر الروحاني لساقي الكوثر، وأن تذكروا الله هناك. أي أن مياه مطر النعم الإلهية الذي نزل عليكم بعرفات يجب أن يفيض بكم إلى المشعر الحرام. ويوصلكم إلى قدم حبيبكم تبارك وتعالى.

قوله تعالى (واذكروه كما هداكم) له معنيان: الأول –اذكروه ذكرا كما هداكم، أي اذكروه بما أمركم به وبيّنه لكم، وثانيا–اذكروه لأنه هداكم. وكما هنا كقوله تعالى (كما أنزلنا على المقتسمين) (الحجر: ٩١).. أي لأننا أنزلنا عليهم.

(وإن كنتم من قبله لمن الضالين). إنْ هنا مخففة.. ويقول الفراء إنها بمعنى النفي، واللام بمعنى إلا.. أي لم تكونوا من قبله إلا من الضالين. وقال الكسائي. إن بمعنى قد، واللام زائدة والمعنى: قد كنتم من قبله من الضالين.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠٠)

شرح الكلمات:

أفيضوا–قال الإمام الراغب: أفيضوا من حيث أفاض الناس: ادفعوا [أي ارجعوا]منها بكثرة تشبيها بفيض الماء (المفردات).

التفسير: هنا سؤال: إن الإفاضة قد تمت من قبل في الآية السابقة، فبأي إفاضة يأمر الله هنا في قوله (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)؟ لقد رجع الناس من عرفات فمن أين يرجعون بعد ذلك؟

فلنتذكر أن "ثم" هنا لا تعني الترتيب. وفي قوله (فإذا أفضتم) لم يذكر الله أمره بالإفاضة، وإنما ذكر الأمر الواقع. وهنا يأمر أن ترجعوا من حيث يرجع الناس. وقد أمر بذلك لأن قريشا وأصحابهم كانوا يرجعون من المزدلفة ولا يذهبون إلى عرفات، وكانوا يحتجون بأن عرفات ليس من الحرم وإنما هو خارج حدوده. لذلك نبقى داخل الحرم عند المزدلفة نحن سكان الحرم ولن نخرج منه. أما القبائل الأخرى فكانت تذهب إلى عرفات في الحج (المشكاة، المناسك). وهنا خاطب الله قريشا وأصحابهم وأخبرهم بضرورة أن يذهبوا إلى عرفات كما يذهب الآخرون، ويرجعوا منها كما يرجعون.

وإذا كانت "ثم" للترتيب فالمعنى أن عليكم بعد الرجوع من عرفات أن ترجعوا من مزدلفة من حيث يرجع الناس، وحتى إن قريشا وبني كنانة الذين كانوا يسمون "الحُمْس" أي المتدينين الكبار أيضا كانوا يرجعون هناك (المرجع السابق).

وحكم الرجوع من مزدلفة بيانه أن على جميع الحجاج أن يخرجوا من مزدلفة بعد صلاة الفجر والدعاء، ويصلوا إلى منى قبل طلوع الشمس.. حيث يقومون برمي الجمرات، ويقدمون الهدي ويحِلّون.. أي يخرجون من حالة الإحرام.

فهذه الآية حجة على الجكرالويين[١٣] لأن الله تعالى لم يذكر هنا المكان الذي يرجع منه الناس. فَلِفَهْم الآية وتطبيقها لا بد من تتبع سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

(واستغفروا الله إن الله غفور رحيم).. مع أداء هذه المناسك عليكم أن تطلبوا المغفرة من الله تعالى، لأن الحج ابتلاء كبير. لقد ذكر لي كثيرون أن قلوبهم بعد أداء الحج قد قست أكثر من ذي قبل. كذلك قال لي آخرون أنهم كانوا في حماس شديد في الحج، ولكن بعد ذلك كان التأثير سلبيا. ومما لا شك فيه أن في الحج تركيزا كبيرا على الظاهر بحيث يختفي الباطن من هذه العبادات إلى حد كبير. فمثلا يقومون بتقبيل الحجر الأسود، والسعي بين الصفا والمروة، والطواف ببيت الله. ثم برمي الجمار عند ثلاثة تلال أصبحت كأبراج. كما يضطر الإنسان هناك للقيام بالعبادة لحوالي خمس ساعات، فإذا لم يكن مع أداء هذا المناسك استغفار لأصاب الصدأ القلوب. إنني لم أر في جموع الآلاف هذه شخصا واحدا يدعو، وإنما يرون أن الحج هو أن يحرك الإنسان منديله عندما يحرك المطوِّف منديله. لكن الله تعالى وفقني لدعاء كثير هناك. فبما أن هذه العبادة ليست عبادة معينة كالصلاة مثلا، لذلك لا يعرف الناس أهمية الدعاء فيها. لقد ركزت الشريعة على الظاهر وتركت أمر الباطن في يد الإنسان. ولكن ما يحدث أن الكثير لا يعرفون أن عليهم الإكثار من الدعاء والعبادة هناك. لذلك قال الله تعالى إن عليكم الإكثار من الاستغفار في أيام الحج، وأنتم في حاجة ماسة إلى ذلك.. لأن الحج يركز على الظاهر أكثر ويختفي فيه الباطن الذي هو جوهر العبادة. فإذا لم يهتم الإنسان بالباطن وقام بأعمال الظاهر فقط وظن أنه عمل بأوامر الشرع.. فلا بد أن يصاب قلبه بالصدأ.

---

[١٣] فرقة بالهند. . لا تأخذ بالحديث والسنة النبوية، وتقول إن القرآن فيه الكفاية.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(٢٠٢)

التفسير: يقول الله تعالى: إذا أديتم فريضة حج البيت الحرام بحسب ما أمرتكم به، فاذكروني كما تذكرون آباءكم.

كان من عادة العرب بعد فراغهم من فريضة الحج أن يعقدوا المحافل لثلاثة أيام في مِنى.. ينشدون فيها القصائد ويذكرون أمجاد الآباء، ويمدحون قبائلهم، ويشيدون بما عرفت به من شجاعة وسمعة وكرم. يقول الله تعالى: أما هؤلاء فكانوا يمجدون آباءهم في قصائدهم، وننصحكم أن تذكروا الله بعد مناسك الحج كما تذكرون آباءكم. فكما أن الطفل الصغير إذا فُصل عن أمه بكى وصرخ مُلحّا أن يذهب إلى أمه.. كذلك اذكروا الله مرة أخرى حتى تسري محبته في كل ذرة من كيانكم. إن الله تعالى لا تدركه الأبصار، ولا يتجلى حُسنه للإنسان مباشرة، وإنما بكثير من الوسائل. ولو عَبّرنا عن حسنه بالكلمات، وتدبرنا فيه لتجلى لنا شكله المعنوي بالتدريج. لو قلتم: إنه مالك، ثم فكرتم في مالكيته؛ ولو قلتم إنه قدوس، ثم فكرتم في قدوسيته؛ ولو قلتم إنه ستار، ثم فكرتم في ستره؛ ولو قلتم إنه غفور،ثم فكرتم في غفرانه.. لارتسمت في ذهنكم صورة معنوية لله تعالى. بترديد هذه الصفات الإلهية مرة بعد أخرى وترسيخها في أذهاننا تتجلى صورة لله أمام أعيننا، فنـــزداد حبّا لله. إذ من الضروري لحب شيء أن يكون ماثلا أمام الإنسان، أو على الأقل تكون صورته موجودة. وعن هذه الحقيقة عبّر سيدنا الإمام المهدي في شِعر له بالأردو:

دیدار گر نہیں ہے تو گفتار ہی سہی حسن وجمالِ یار کے آثار ہی سہی

ومعناه: إذا لم يكن الحبيب أمام الإنسان فعلى الأقل يسمع الإنسان صوته، ويرى بعض آثار جماله وحسنه (البراهين الأحمدية ج٥، الخزائن الروحانية، ج٢١ ص١٧).

لذلك يقول الله تعالى: كما أن الأولاد يشتاقون إلى لقاء آبائهم كذلك يجب أن تنشئوا علاقة حب روحاني مع الله، حتى تكون كل راحتكم وسكينتكم منوطة بالله، لأن هذا هو المدار لحياتكم الروحانية.

لقد أمر بذكر الله بعد أداء الحج ليقول: أما وقد توطدت لكم صلة روحانية بالله، فيجب من الآن أن تصبحوا مرآة لصفات الله تعالى، وأن تعيشوا تحت ظل كنفه.. كالأطفال الذين يعيشون في أحضان آبائهم ويسعون ليتخلقوا بأخلاقهم وعاداتهم.

(أو أشد ذكرا): لقد أمرناكم من قبل أن تذكروا الله كما تذكرون آباءكم، ولكن هذا المستوى هو لمن لم يحققوا بعد درجة عالية في الروحانية. أما الذين يرون يدا خفية لحب الله تعالى في حب الآباء لهم.. فهم لا يقيمون لحب الآباء أي قيمة أمام حب الله. فهؤلاء عليهم أن يذكروا الله ذِكرا لا نظير له في علاقتهم الدنيوية، حتى يتضاءل تماما ذكرهم لآبائهم أمام ذكر الله تعالى.

ثم يقول: (فمن الناس من يقول ربنا آتِنا في الدنيا وما له في الآخرة مِن خَلاق). هناك من الناس من يسألون الله الدنيا.. مثل النصارى الذين يدعون "خبزنا كفافنا. أعطنا اليوم" (متى: ٦:١٢). ولا يهمهم الحلال أو الحرام ، ولا يرون ما إذا كان الشيء نافعا أو ضارا، وإنما غايتهم أن ينالوا الدنيا. ولذلك لم يقل الله إنهم يدعون "ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وإنما يقولون (ربنا آتنا في الدنيا).. وفيه إشارة إلى أن هؤلاء إنما يريدون الدنيا ويموتون من أجلها، مع أن الجاه الدنيوي بدون العزة الأخروية لعنة.. كما حدث بالنسبة إلى اليهود والنصارى، فإنهم قد نالوا اليوم عزة دنيوية فحسب، وما لهم نصيب من عزة الآخرة، ولذلك قال (وما له في الآخرة من خلاق). قد نعطيهم الدنيا، ولكن لا نعطيهم أي نصيب من النعم الأخروية. بيد أن العزة الأخروية وحدها أمر لا دليل عليه، وإنما يتم الدليل عليه إذا نال الإنسان حسنة في الدنيا مع حسنة في الآخرة. ولذلك ذكر أن هناك طائفة تقول (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار).. يا رب حقق لنا عزة دنيوية، وآتنا أيضا مقاما عاليا في الآخرة. إذا أعطيتنا الدنيا فلا تجعلنا نستغلها في

منافعنا الشخصية، وإنما نستخدمها لإظهار عظمة دينك، ولكسب رضوانك. فإذا فعل الإنسان ذلك تحقق له العز الدنيوي، كما ينال درجة عند الله.

هذا الدعاء الذي عَلّمنا الإسلام إياه.. يبدو في الظاهر دعاء قصيرا، ولكنه يغطي الحاجات الإنسانية بكل أنواعها. يبدو أن كلمة (حسنة) غير كافية، ويجب أن نقول "حسنات"، ولكن هذه فكرة تدل على جهل باللغة العربية. الحقيقة أنه لو استخدم كلمة "حسنات" لكان المعنى أن نُعطى بعض ما هو خير، ولكن استخدام كلمة (حسنة) يعني أن نُعطيَ الخير كله. فالمعنى: يا رب، أعطنا ما هو حسن. إذا أعطيتنا الخبز فليكن حلالا طيبا وهنيّا مريا؛ وإذا أعطيتنا اللباس فليكن حلالا طيبا ساترا للعورة جميلا؛ وإذا أعطيتنا زوجة فلتكن مواسية متفهمة متدينة متعاونة على البر والتقوى، ودودة ولودة، مربية للأولاد تربية حسنة؛ وإذا أعطيتنا دارا فلتكن طاهرة مباركة خالية من مسببات الأمراض، وليس فيها ما يضر بالصحة، وجيرانها مسالمون لا يؤذون أحدًا، وفي حيٍّ أهلُه غير أشرار، وفي مدينة تراها خيرًا لي؛ وإذا أعطيتنا حكاما فليكونوا رحماء، أهل تقوى وعدل، محبين لرعاياهم؛ وإذا أعطيتنا أساتذة فليكونوا ذوي علم، يُحسِنون تعليمنا بشوق وإخلاص، لا يظلموننا ولا يفسدوننا ولا يضلوننا، وإذا أعطيتنا أصدقاء فليكونوا ناصحين محبين متعاونين عند حلول المحن والمصائب، يشاركوننا في الفرح والترح، وبالجملة فإن قول (آتنا في الدنيا حسنة) يعني آتنا كل ما هو حسن يناسب حاجاتنا، ويكون خيرا.

فبترك كلمة "حسنات" واختيار (حسنة) وسَّع الله في هذه المعاني. هناك كلمات أخرى بمعنى خير وأفضل، ولكن الله تعالى لم يستخدمها واختار كلمة حسنة. ذلك لأن هذه الكلمة تدل على ما هو خير وحسن ظاهرا وباطنا، إذ يمكن أن يكون شيء ما خيرا من حيث المنافع والفوائد، ولكنه ليس خيرا في شكله الظاهر. فقد تكون مثلا الزوجة ذات أخلاق طيبة، ولكنها جدعاء أو عمياء أو صماء.. فلا يمكن أن تسمّى هذه حسنة، وإنما الزوجة التي تسمى حسنة هي من تكون ذات

أخلاق حسنة وأيضا صورة جميلة، فيكون ظاهرها خيرا وباطنها خيرا. فالمؤمن يدعو الله تعالى ليعطيه ما هو جميل حسن من حيث الظاهر ومن حيث الباطن.

(وفي الآخرة حسنة) أي أعطِني في الآخرة أيضا ما هو حسن، أي يكون خيرا في الظاهر والباطن. يمكن القول بأن كل شيء في الآخرة حسن، فلماذا قال (وفي الآخرة حسنة)؟ الجواب أن بعض الأشياء في الآخرة تكون حسنة في باطنها، ولكن ظاهرها غير ذلك. نعرف من القرآن الكريم أن جهنم وسيلة لإصلاح الإنسان.. لأنها في آخر المطاف بعد التطهير تقربه إلى الله تعالى، ومن هذه الناحية هي خير، ولكن من الناحية الظاهرية ليست حسنة وإنما هي عذاب. فبقوله (وفي الآخرة حسنة) دل على ضرورة الدعاء أن يا ربنا، لا تُصْلِحنا بعذاب جهنم وإنما أصلِحنا بفضلك، ولا تعطنا في الآخرة ما هو خير فقط في الباطن مثل عذاب جهنم. فالحسنة في الآخرة إنما هي الجنة، فظاهرها حسن وباطنها حسن.

(وقِنا عذاب النار).. لا يعني "عذاب النار" هنا فقط العذاب الذي يكون في الآخرة؛ وإنما عذاب النار يكون في الدنيا أيضا. وما دام قد علَّمنا الله هذا الدعاء بعد أدعية تتعلق بالدنيا والآخرة فالمعنى: نجِّنا من عذاب النار في الدنيا، ونجنا من عذاب النار في الآخرة. إن كثيرا من الناس واقعون في عذاب النار في الدنيا بأنواع الآلام والحسرات والمصائب، ولكن الإنسان عندما يدعو ربه: احمِني من عذاب النار، فإن الله تعالى ينجيه من هذا العذاب الدنيوي، وتصبح الأشياء التي كانت نارا من قبل جنةً.

ويعني (عذاب النار) أيضا العذاب في الآخرة.. فالدعاء يشمل النجاة من العذابين. والمراد من (عذاب النار) أيضا الحروب الدنيوية، لأن الحرب أيضا عذاب من نار. فالذي يدعو بهذا الدعاء كأنه يقول: يا رب لا تُرِني ساعة عُسرٍ وسوءٍ، وجنبني الحروب فلا يقترب مني عذاب النار هذا!

وإذا كان أحد الجنود مشتركا في الحرب.. فإن دعاءه هذا يعني: يا رب احمِني من شرور الحرب وتأثيراتها السيئة، فإذا أُطلقت عليَّ قذيفة فلا تصبني، بل تفوتني في أية حال، فهذا دعاء قصير في الظاهر ولكنه واسع وجامع، علمنا الله إياه، وكان الرسول ﷺ يردده كثيرا.

أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٣)

التفسير: الكسب هو بذل المجهود لنيل شيء، وقد استُخدم الفعل (كسبوا) إشارة إلى دعائهم السابق.. مما يعني أن فعل اللسان والقلب أيضا يُطلق عليه فعل الكسب. والمراد أن الذين يسألون الله في دعائهم نعماء الدنيا والآخرة سينالون أجرهم من الله بحسب إخلاصهم وإيمانهم.

قوله (والله سريع الحساب) يعني أنه لا يؤخر الجزاء على الحسنة والسيئة. بل بمجرد أن يقع الفعل يترتب الجزاء.. أي كل عمل للإنسان يؤثر في جوارحه تأثيرا فوريا. وهذا الموضوع مذكور في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وأشار إليها الرسول ﷺ في أحاديثه أيضا. فقد قال إن الإنسان عندما يعمل سيئة تترك على قلبه بقعة سوداء. فإذا لم يتب وازداد في السيئات ازدادت هذه البقع حتى يسوَدَّ قلبه كله. وإذا عمل الإنسان خيرا ترك ذلك نكتة بيضاء في قلبه، وإذا استمر في أعمال الخير ازدادت هذه النكات حتى يصير قلبه أبيض منوَّرا (مسند أحمد، ج٢،ص٢٩٧). وفي قوله (سريع الحساب) إشارة إلى سنته هذه بأن الإنسان إذا عمل عملا أثَّر هذا في قلبه على الفور، وهذا أيضا نوع من تسوية الحساب من الله تعالى. والثابت من البحوث العلمية الجديدة أن كل عمل أو حركة للإنسان تُحْفَظ في الفضاء. فالعمل وجزاؤه توءمان يستلزم ظهور أحدهما ظهور الآخر.

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٤)

التفسير: الأيام التي أمر الله بالإكثار من ذكره فيها على وجه الخصوص هي أيام التشريق، أي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة، أو هي أيام مِنى.. أي من العاشر إلى الثالث عشر من ذي الحجة.

وقوله تعالى (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه) أي من كان في عجلة ورجع بعد يومين فلا إثم عليه. هناك بعد العاشر من ذي الحجة ثلاثة أيام لرمي الجمار، ولكن الله رخَّص لمن رجع بعد يومين. وهناك اختلاف بين الفقهاء في هذا الصدد. فيرى أبو حنيفة أن للحاج أن يرجع في اليوم الثالث من أيام التشريق بعد الصباح، ويقول البعض الآخر أن للحاج أن يرجع في اليوم الثاني بعد رمي الجمار. وهناك من يقول إن له أن يرجع قبل العصر لا بعده في اليوم الثاني.. وكأن رمي الجمار في اليوم الثالث قد عُفي عنه. ويقول البعض إنه لو كان في نيته التعجيل فليقم برمي الجمار يوم النحر (البحر المحيط).

(ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى): فمن رمى الجمار في اليوم الثالث و لم يتعجل فلا إثم عليه، وهذا وعد لمن اتقى. يظن البعض أن (لمن اتقى) يتعلق بالتعجيل، ولكني أرى أنه لا علاقة له بالتعجيل أو التأخير، وإنما علاقته بقوله (فلا إثم عليه). فإذا كان الإنسان آثما فهو آثم، ولا يصح فيه (فلا إثم عليه). فهذا النفي للإثم في حق المتقي. إذا لم يكن آثما بطريق آخر فلا إثم عليه إذا تأخر أو تعجل.

(واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) نبّه هنا إلى أن الغرض الحقيقي من مناسك الحج أن تنشأ التقوى في قلوبكم. فطوافكم ببيت الله الحرام، وتقبيلكم للحجر الأسود، وسعيكم بين الصفا والمروة، وذكركم لله في مزدلفة ومنى وعرفات والمشعر الحرام، ورميكم الجمرات.. كل هذا هدفه أن يتولد في قلبكم حب صادق لله تعالى، وتدركوا أنكم هكذا سوف تحشرون إلى الله في يوم من الأيام. فإذا وثقتم

صلتكم بالله وتحملتم أنواع المشقة، ولم تترددوا في تقديم أي تضحية في سبيله، فسوف يبارك الله فيكم كما بارك في إسماعيل وإبراهيم وهاجر، وسوف يحمي ذريتكم في حماه على الدوام. فلتتخذوا التقوى شعارا لكم، وتذكّروا يوما تحشرون فيه إلى الله ليحاسبكم على أعمالكم.

إلى هنا انتهت الأحكام الخاصة بالحج. ولكن هناك سؤال: ما الحكمة في زيارة هذه الأماكن والطواف هناك؟

أرى أن من أكبر الحِكم الظاهرة من ذلك وأهمها أن الله قال في موضع آخر في القرآن الكريم (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) (آل عمران: ٩٧). فأول بيت تم بناؤه لنفع العالم هو ذلك البيت الذي في مكة المشرفة. لم يبْنِه سيدنا إبراهيم، وإنما هو موجود منذ سيدنا آدم أيّا كان آدم هذا. وكان في قوله (وضع للناس) نبأ بأنه ما دام هذا البيت قد بُني لجمع العالم كله، فلا بد أن يُجمعوا هناك، ولهذا عيّن الله التواريخ المحددة للحج. وبعبارة أخرى: وجَّه الله دعوة عظيمة على مائدته الروحانية لتوحيد الإنسانية، ولجمع الأتقياء والصلحاء من كل مكان. ولخلق قوة ووحدة عالمية بين العالم الإسلامي أجمع.. كي يزول ما بينهم من فروق وكراهيات بسبب اختلاف أقوامهم أو بلادهم، وتتسع وتتقوّى علاقتهم ويزدادوا حبا فيما بينهم.

أرى أن الله جعل ثلاثة أيام فارغة للناس في مِنى، لكي يقضوا أوقاتهم في ذكر الله تعالى وعبادته، فضلا عن أن تتم اللقاءات فيما بينهم ويتعرفوا على أحوال بعضهم البعض. إن إخواننا يزورون قاديان وربوة من وقت لآخر، ولكن العلاقات لا تزداد ولا تتوثق مثلما يحدث في أيام الاجتماع السنوي. فأرى أن المسلمين لو استغلوا أيام الحج لذلك الهدف لانمحت من بينهم أنواع الفرقة والشقاق التي أضعفتهم، ولتمكنوا من تحقيق وحدة عظيمة رغم اختلافهم في بعض العقائد. صحيح أن الحج عبادة دينية، ولكنها إلى جانب فوائدها الروحانية تتضمن منفعة ملّية وسياسية للمسلمين: وهي أن يجتمع هناك في كل سنة جماعة كبيرة من أصحاب النفوذ

والتأثير ليطلعوا على أحوال المسلمين في أنحاء العالم، فيزدادوا أخوة ومحبة، واطلاعا على مشاكل بعضهم البعض، وتعاونا فيما بينهم، ويأخذوا عن إخوانهم من محاسن وميزات، ولكن الأسف أنهم لا يجنون هذه الفوائد كما ينبغي.

والسؤال هنا الآن: إذا كان هذا هو الغرض من الحج، فكان يكفي للمسلمين أن يجتمعوا في مكة، فلماذا يذهبون إلى مِنى وعرفات ومزدلفة؟

أرى من حِكم اجتماعهم في عرفات ومنى ومزدلفة أنه لا يمكن اجتماعهم بهذه الأعداد في مدينة مثل مكة، وكذلك لا يمكن أن تتم بينهم المقابلات على وجه صحيح، فأمرهم الله بالاجتماع في ميادين فسيحة واسعة، لكي تتم اللقاءات بينهم بسهولة لسعة المكان وتوافر الوقت الكافي.. فيتحقق هذا الهدف على أحسن وجه.

وهناك حِكمة أخرى لتشريف هذه الأماكن لتكون ملتقى هذه الاجتماعات، وهي أن عرفات على ناحية ساحل البحر الأحمر، وأرى أن إبراهيم جاء من هذا الطريق بهاجر وإسماعيل من الشام ليتركهما في مكة. ثم إن عرفات هو ذلك المكان الذي تجلّى فيه الله لإبراهيم. أما المزدلفة فهو المقام الذي وعد الله فيه إبراهيم برفع درجاته نتيجة لهذه التضحية. أما مِنى فهو المقام الذي جرت فيه هاجر وراء إبراهيم في فزع، ولما أخبرها أنه تركها هناك بأمر من الله قالت (إذا لا يضيعنا) ورجعت (البخاري، الأنبياء). وكأنه قد قُضي هناك على الشيطان للأبد، ولذلك يقومون برجمه هناك بالجمرات.

ومن هذه الحكم أن الغرض من حج الله الحرام هو توطيد الاحترام والتعظيم لشعائر الله في قلوب الناس. والظاهر من كلمة (شعائر الله) أنها من آيات الله. ولما كان هناك من ينتقل ذهنهم من الظاهر إلى الباطن، لذلك جعل الله لهم في حج بيته علامات وآيات تذكرهم بالله وتجدد في قلوبهم حبه تعالى.

والواقع أن الحج ذكرى لتلك التضحية العظيمة التي قدمها إبراهيم بترك هاجر وإسماعيل (عليهم السلام).. عند بيت الله الحرام في واد غير ذي زرع، وهما في

حالة غاية من العسر وقلة الحيلة. يظن بعض الناس خطأ أن الله تعالى أقام ذكراهم في صورة الحج لأن إبراهيم استعد لذبح ابنه إسماعيل بالسكين. لو كان هذا صحيحا لكان مقام الحج في الشام حيث تم حادث الذبح بدلا من أن يكون في الحجاز، وأن يجتمع الناس هناك في الشام لذكر الله تعالى، ويقولوا: انظروا ما أعظم ما قدمه إبراهيم من تضحية! ولكن الله تعالى اختار مكة مقاما للحج، وفرض على الحجاج زيارة مِنى وعرفات ومزدلفة لأداء بعض مناسك الحج هناك. فأرى أن الحج لا علاقة له بحادث ذبح إبراهيم ابنه إسماعيل، وإنما يتعلق بما فعل إبراهيم مع هاجر وإسماعيل، إذ تركهما بأمر من الله في واد ذي غير زرع، ليس فيه قطرة ماء ولا حبة طعام. عندما يقوم الإنسان بالحج تتراءى كل هذه المشاهد أمام عينه: كيف أن الله تعالى ينجي من الهلاك من يضحي لأجله، ويكتب له العزة والشرف فوق العادة، فيزداد الحاج حبا لله تعالى ويقينا وثقة بذاته.

وعندما يرى الحاج نفسه أمام بيت بُني منذ البداية لذكر الله يشعر بعلاقة روحانية عجيبة بينه وبين الذين ما زالوا منذ آلاف السنين ينخرطون في هذا السلك الروحاني الذي انخرط هو فيه الآن.. هذا السلك الروحاني لحب الله وذِكره الذي جمع بين كل هؤلاء من السابقين أو الجدد.

كذلك برؤية بيت الله تعالى تتجلّى للحاج عظمة الله وجلاله، ويفكر بجمعه الناسَ من كل الأطراف حول بيته بطريقة غير عادية. عندما يقع نظر الحاج لأول مرة على بيت الله يكون لذلك وقع خاص على قلبه، وهذا الوقت له شأن عجيب لقبول الدعاء. كان الخليفة الأول للمهدي والمسيح الموعود (عليه السلام) يقول: عندما ذهبت إلى للحج، وكنت أعرف حديثا يقول إن الحاج عندما يقع بصره لأول مرة على بيت الله الحرام فإن دعاءه الذي يدعو به عندئذ يستجاب. ففكرت أن أقوم ببعض الأدعية، ثم خطر ببالي أنه لو دعوت بهذه الأدعية واستجيبت.. فماذا أفعل بعد ذلك لو احتجت الدعاء لأمر آخر خارج الحج بعيدا عن الكعبة؟

ففكرت أن أدعو الله قائلا "يا رب استجب لكل دعاء ابتهل به لك في حياتي".. وذلك لكي تستمر سلسة الاستجابة للدعاء بعد الحج.

وكنت سمعت هذا من الخليفة الأول، فلما ذهبت أنا للحج تذكرت قوله هذا، وما أن وقع نظرنا على الكعبة المشرفة قال لي جدي لأمي: تعالوا ندْعوا. وأخذ يردد بعض الدعوات، ولكنني دعوت قائلا: رب، أنّى لي أن أحظى كل يوم برؤية بيتك. إن هذه فرصة العمر التي تيسرت لي كي أحج، وكل ما أدعوك هو أنك وعدت رسولك أنه عندما تقع أول نظرة لزائر بيتك عليه في أيام الحج، فكل دعاء يدعو به عندئذ مستجاب، فأتضرع إليك يا ربي أن تقبل كل دعواتي في حياتي". ومنذ ذلك الوقت لا زلت أرى بفضل الله تعالى ورحمته أن كل دعائي مستجاب بكثرة لا يقدر قنَّاص ماهر إصابة هدفه بمثلها.

كذلك عند الطواف ببيت الله الحرام.. يرى الحاج آلافا من الناس يطوفون به، وآلافا آخرين يصلون حوله.. فيتولد في قلبه إحساس عميق بأنني قد انقطعت عن الدنيا إلى الله.. فمن واجبي الآن أن أبقى ساجدا على عتبته سبحانه وتعالى.

ثم عند السعي بين الصفا والمروة يتذكر الإنسان حادث السيدة هاجر، فيمتلئ قلبه باليقين بأن الإنسان لو أقام لوجه الله في أرض قفر وبرية، فإن الله لن يضيعه، بل يهيئ له الأسباب من عنده، ويعطيه نصيبا من المعجزات والآيات.

كما أن كل الأماكن الموجودة هناك التي هي من شعائر الله قد سُميت بأسماء تنبه الإنسان إلى الله تعالى. فمثلا، يذهب الناس إلى منى، وهذا الاسم مشتق من الأمنية، أي الهدف الذي يتمناه الإنسان . وفي هذا إشارة إلى أن الحاج يزور هذا المكان للقاء الله فقط، ولإظهار كراهيته التامة وبراءته من الشيطان.

أما عرفات فهو إشارة إلى أننا قد عرفنا الله تعالى والتقينا به.

وفي مزدلفة معنى القرب والزلفى، وفيه إشارة إلى أن غايتنا قد اقتربت منا.

أما المشعر الحرام –وهو تل صغير –فيولد في قلوبنا احتراما خالصا للنبي ﷺ وعواطف كعواطف إبراهيم، لأنه مقام كان النبي ﷺ يُكثر من الدعاء عنده خاصة.

وهناك، مكة المكرمة، وهي مكان لا يوجد حوله إلا بعض الأشجار والإذخر.. ترى الرمال والأحجار في كل مكان، أو بعض الثنايا. إنه جاف للغاية، ولا خضرة فيه ولا بستان، وليس هناك من مغريات الدنيا شيء. فلا شك أن قصد هذا المكان لا يكون إلا لوجه الله والتقرب إليه وابتغاء مرضاته. وهذا هو الغرض من حج بيت الله الحرام.

وهناك أمر آخر يشير إليه الإحرام. ذلك أن يتراءى للإنسان مشهد يوم الحشر. فكفن الإنسان قطعتان من القماش، واحدة لأعلى الجسم وأخرى لأسفله، ويكون الرأس حاسرا؛ ونفس المشهد يكون في عرفات حيث يجتمع الناس بالآلاف على هذا الشكل، فيتراءى للإنسان مشهد كالحشر، ويُخيل له أنه أمام الله، وأن الناس قد خرجوا من قبورهم في أكفانهم ليمثلوا أمام الله تعالى.

ثم في حج بيت الله تتراءى للإنسان الأحداث التي جرت في أيام إبراهيم وإسماعيل وهاجر ومحمد عليهم السلام. فينال إيمانا وعرفانا جديدا. إن الأمم الأخرى أيضا تحكي أحداث كبرائها بلغة الصور.. كما يحكي الهندوس أحداثا تاريخية لهم في مكان يسمى (دسهرا) ولكن الله تعالى سرد أحداثا تاريخية لآباء المسلمين سردا يحقق هدفين: يتجدد بذلك ذكرى الأحداث القديمة، كما يتراءى لأعينهم مشهد لحدث قادم.. وهو حادث يوم الحشر.

ثم هناك رمي الجمرات، والغرض الحقيقي منها هو البراءة من الشيطان: وهناك حكمة في أسماء هذه الجمرات الدنيا والوسطى والعقبة.. وهي أن يعد الإنسان أنه لن يسمح للشيطان أن يقترب منه في الدنيا، وسوف يدخل عالم البرزخ ثم العقبى خاليا من أي تأثير للشيطان على روحه.

ثم بتقديم الذبائح وجه الأنظار إلى أن على الإنسان أن يكون دائما مستعدا للتضحية بنفسه في سبيل الله تعالى. فكلما يناديه ربه يخضع على الفور ويحني رأسه في سبيل الله، ولا يتردد في أن يقدم رأسه في هذا السبيل.

ثم الطواف والسعي والرمي كلها سبع مرات. وفي ذلك إشارة إلى تكميل المدارج الروحانية السبعة التي يجب أن يسعى الإنسان لنيلها. وقد جاء تفصيل هذه الدرجات الروحانية السبعة في سورة (المؤمنون).

كما أن تقبيل الحجر الأسود أيضا لغة تمثيلية. فبالتقبيل يعني الإنسان أن هذا الذي أقبِّله لا أستطيع الانفصال عنه؛ بل أريد أن يكون جزءا من جسمي.

إذًا، فالحج عبادة عظيمة يمكن أن ينال بها المؤمن الصادق آلاف البركات والأنوار. ولكن الأسف أن المسلمين في هذه الأيام يقومون بأداء هذه الفريضة أداء ظاهريا، فلا يتمتعون من بركاتها كما يجب.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٥)

شرح الكلمات:

ألد الخصام –ألد اسم التفضيل من لدّ يلدُّ. وألدّ الخصام: شديد الخصومة (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن هناك أناسا في الدنيا عندما يتكلمون في المجالس تقولون في أنفسكم: ما أشدهم عقلا وذكاء! ويُخيل إليكم أنهم محيطون بكل علوم الدنيا، ولا يستطيع أحد أن يبلغ شأوهم. أما فيما يتعلق بصلاحهم ودينهم فيؤكدون للناس أن ليس في قلبنا إلا الخير ولا يعرفه إلا الله، فاستشيرونا وسوف نفعل كذا وكذا. إنه يكون معكم، ويسمّى مسلما، وعندما يكون في مجلس يستولي على

الحضور بطلاقة لسانه، ويُقسم على صلاحه وتديّنه، ويدّعي أن قلبه يذوب في حب القوم وخيرهم، وعندما يراه الرائي ويسمعه السامع يظنه أحد الأقطاب والصلحاء، ولكن الله تعالى يقول: الحقيقة على العكس من ذلك. إنه أخطر وأشد عداوة من أعدائكم اليهود أو النصارى وغيرهم من الأمم الأخرى. إنه في الظاهر يبدو تجسيدا للصلاح والتقوى، ولكن الحقيقة غير ذلك. لا يأتي بمعارف دينية، وإنما يتحدث عن أمور دنيوية بكلام يبدو جميلا في الظاهر، ولكن وراءه النفاق. والدليل على كذبه أنه يقسم بالله مرّة بعد أخرى في كل صغيرة وكبيرة، ويقول: والله إني مخلص، وليس في قلبي إلا الإخلاص، ولا أفعل ذلك إلا لصلاح الناس وخيرهم. فلا تنخدعوا بكلماته المعسولة. وإذا رأيتم شخصا كهذا فقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، وتجنبوه، واعلموا إنه شيطان يقسم ويؤكد للناس صلاحه وخلوص نيته ليخدعهم ويخونهم.

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٦)

شرح الكلمات:

تولّى-التولِّي: الانصراف بالبدن أو القول. والتولي أن يصبح الإنسان حاكما أو واليا(اللسان).

الحرث-ما يُستنبت بالبذر والنوى والغرس (الأقرب).

النسل-العقب، أي الأولاد؛ الخلق؛ الجيل القادم (الأقرب).. أي ليس الأبناء فقط وإنما الأولاد إلى أجيال.. كلهم يسمون نسلا.

التفسير: يقول الله تعالى إن هؤلاء إذا نالوا السلطان وقبضوا على زمام الحكم باستخدام القوى التي خلقها الله لهم.. فبدلاً من أن يخدموا الرعايا والبلد، وبدلا من

أن يفعلوا ما يُبث السكينة والطمأنينة بين الناس، يلجأون إلى حِيَلٍ تؤدي إلى الشجار والقتال بين قبيلة وأخرى، وبين أتباع دين وأتباع دين آخر؛ حتى يسود البلادَ حالةٌ من الفوضى والطائفية.

الحرث تعني الزرع أو الحقل، وجاءت هنا بمعانٍ واسعة مجازا. والمعنى أنهم بدلاً من أن يعملوا بما يؤدي إلى تقدم الحالة الحضارية والاقتصادية والأخلاقية في البلد فإنهم يضعون قوانين مدمرة للحضارة والأخلاق والاقتصاد والوضع المالي للبلاد، وهكذا يعرقلون طريق الرقي في وجه الإنسانية، ويقضون على ما في الأجيال القادمة من قوًى، ويحرمونها من علوم وفنون لو أنهم تعلموها لازدهروا وحققوا رقيًا.

(والله لا يحب الفساد).. لذلك ينظر الله تعالى إلى كل ملك ظالم أو حاكم مفسد نظرة غضب وسخط واحتقار. ثبت من هذا أن المِلك الصالح في نظر الإسلام إنما هو ذلك الذي يهيئ الأمن بجميع أنواعه لرعاياه، فيصلح حالتهم الاقتصادية، ويصون أرواحهم، ويعتني بصحتهم، ولا يثير حروبا لا داعي لها، ولا يدفع أبناء أمته إلى الموت بدون مبرر. وكأن الإسلام يرى أن من واجب الحكومة أن تحافظ على أمن المدنيين وأرواحهم وأموالهم، وتهتم برقي البلاد ورفاهية الرعايا دائما.

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ(٢٠٧)

شرح الكلمات:

اتَّقِ –افْتَعِلْ، من وقي يقي بصيغة الأمر. اتقَّى: تجنَّب خطرًا، ولكن هذا المعنى لا ينطبق هنا، لأن الإنسان لا يمكن أن يحمي نفسه من الله مهما فرَّ منه. والمعنى الصحيح هنا أن يتخذ الله ذريعة لحمايته (اللسان).

أخذته–الأخذ حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارة بالتبادل وتارة بالقهر (المفردات). أخذتُه بكذا: حملته عليه.

العزة –تستعار للحمية والأنفة المذمومة كما ورد في القرآن (أخَذَتْه العزة بالإثم) (الأقرب).

جهنم–دار العقاب بعد الموت (الأقرب). وقد استخدم القرآن الكريم كلمات أخرى لجهنم مثل جحيم، سعير، سقر.

المهاد–هو المكان الذي يستريح فيه الإنسان بعد تعب مثل الفراش ونحوه (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى أن هذا المذكور عندما يقال له اتق الله، فإنك لا تساوي شيئا في حد ذاتك، لأن كل ما عندك هو من عند الله تعالى.. تأخذه العزة بالإثم. *

ولهذه العبارة معنيان: الأول–أنه بسبب آثامه السابقة يصاب بجنون، لأنه يظن أنه قد أهين بهذا القول، فينأى عن الهداية أكثر. والثاني –أن عزته الدنيوية تأخذه بالإثم.. أي تحضه وترغّبه وتزيده في ارتكاب الإثم. يقول الله إن مثل هؤلاء يمكن أن يخدعوا الناس في هذه الدنيا، ولكن مصيرهم في الآخرة جهنم، ولبئس المهاد؛ أي ما أسوأه من مصير.

صحيح أن جهنم في الآخرة، ولكن هناك نوعا من جهنم يعدّها الإنسان في هذه الدنيا، فإن الشرفاء عندما يتصدّون لمثل هؤلاء الأشرار فإنهم يتلقون منهم ردّا يكون بمثابة جهنم لهم.

للأسف أن كثير من الناس لا يهتمون بإصلاح نفوسهم، ولو دلّهم أحد على أخطائهم وقال لهم اتقوا الله.. يظنون أنهم قد أهينوا، ويُجنّون غضبا، ولا ينتصحون بنصح الناصح، بل يتصدون له ويعارضونه. ولكن هذا لا يعني أن لكل إنسان الحق أنه إذا رأى في أحد عيبا أو خطأ يبدأ في لومه أمام الناس علنا في الطريق.. بل يجب أن يتم النصح على انفراد، ويلاحظ الناصحُ صلاحيته.. أي هل هو أهل لنصح المخطئ أم لا، حتى لا يكون للنصح أثر سلبي. فكما أن من واجب المخطئ أن يكون صبورا على الانتقاد، وأن يسمع لقول الناصح بهدوء.. كذلك من واجب الناصح أن يكون محتاطًا في تقديم نصحه، فلا يهين أحدا أمام الناس بحجة النصح.

وذكر هذا الأمر مع موضوع الحج، لأن من أكبر أهداف الحج القضاءُ على الفروق القومية بين المسلمين ، وأن يزدادوا حبا ووحدة ووفاقا. ولكن هناك مَن دأبهم الشجار والفساد، فنبّههم سبحانه وتعالى أنه يريد جمع العالم كله حول مركز واحد، فعليهم أن يعملوا بما يؤدي إلى الاتحاد والاتفاق، وينسوا لوجه الله ما بينهم من بغض وعناد. والواقع أن الحاج الحقيقي إنما هو من يتجنب هذه الفتن والفساد، أما المفسد والمؤذي للناس فيضر بعمله الوحدة والمركزية التي لأجلها أمر الله الناس بحج بيته الحرام.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ(٢٠٨)

التفسير: هنا بين الله تعالى أن من الناس من لا يبالون ببذل نفوسهم في سبيل الله، وهم مستعدون لفداء أرواحهم لوجهه.. ولا يمكن أن يأتوا بما يضر الآخرين. وهكذا وجّه النظر إلى أن عليكم اتباع سبيل هؤلاء، فلا تتجنبوا الفتن والفساد فقط، بل يجب أيضا أن تقفوا حياتكم لابتغاء مرضاة الله تعالى.

(والله رؤوف بالعباد) أي أن الله شديد الشفقة على عباده، وتقتضي شفقته هذه منكم أن تجتنبوا الفتن والفساد، وتُكرسوا حياتكم لخدمة الإنسانية وفلاحها حتى تكونوا مظاهر لرب رؤوف بالعباد.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(٢٠٩)

شرح الكلمات:

السلم –الصلح؛ السلام؛ الإسلام (الأقرب).

التفسير: يمكن أن تكون كلمة (كافة) هنا حالا من الذين آمنوا، أو حالا من السلم. ويكون المعنى الأول: أيها المؤمنون، ادخلوا في الإسلام جميعا، وينبغي أن تدخلوا كلكم في طاعته، وتضعوا نير طاعته على أعناقكم جميعا. يجب ألا يكون منكم أحد لا يحوز مقام الطاعة والإسلام لله تعالى.

والمعنى الثاني: أيها المؤمنون، يجب أن تقبلوا الإسلام كله، وتتخذوا كل السبل للطاعة والاستسلام لله تعالى، ولا تتركوا أي أمر من أوامر الله.

هذه هي التضحية التي يطلبها الله من المؤمن: يُضحي في سبيله بكل أمانيه وأهوائه وأهدافه. وليس أن يعمل بما شاء ويترك ما شاء.. لو رأى أن الشرع يقضي عليه بالحق، رضي بحكم الشرع ونادى باتباعه؛ أما إذا وجد الشرع يقضي عليه بالحق، في حين أن القانون الوضعي يقف في صفه، قال أتبع قانون البلد. هذا الأسلوب يتنافى تماما مع الإيمان الحقيقي.

في الآيات السابقة بيّن الله أن هناك ضعاف الإيمان بين المسلمين ويسعون بالفساد والفتنة في أيام الرقي القومي وفي زمن الرفاهية، وينسون ما كانوا عليه من قبل، وأن كل ما عندهم هم من فضل الله، ولذلك ينصح الله المسلمين هنا ويقول: صحيح أنكم تُدْعَون مؤمنين، ولكن تذكروا أن التفوّه بالإيمان لا يجعل الإنسان مستحقا للنجاة. فإذا أردتم أن تفوزوا بالنجاة فسبيل ذلك أولا-أن تسعوا لمحو كل صنوف النفاق وعدم الإيمان من بينكم، وأن تجعلوا كل فرد من قومكم ثابتا على صخرة قوية من الإيمان والطاعة. وثانيا-ألا تفرحوا بالعمل ببعض أحكام الشرع، بل عليكم أن تعملوا بكل ما تؤمرون به من الله تعالى، وأن تكونوا مظاهر كاملة للصفات الإلهية.

(ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) أشار بكلمة (خطوات) إلى أن الشيطان دائما يدفع الإنسان إلى الضلال خطوة خطوة، ولا يحضّه على ارتكاب

الكبائر دفعة واحدة، وإنما يرغبه في السيئة بالتدريج؛ فإذا تخطّى أول خطوة حضّه على خطوة أخرى، حتى يدفعه إلى ارتكاب الكبائر.

يقول الله تعالى: ننصحكم أنكم إذا فرحتم بالعمل ببعض أحكام الشرع وأهملتم أحكاما أخرى، وظننتم أنكم مسلمون صادقون فهذه وسوسة شيطانية. ونحذركم أنكم لو أهملتم أحكام الله هكذا فسوف يأتي عليكم وقت لن تعملوا فيه بما كنتم تعملون من أحكام الشرع. فيجب أن تراقبوا أعمالكم باستمرار، وتسعوا لتجنب وساوس الشيطان دوما.

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢١٠)

التفسير: يقول الله تعالى: إذا لم تهتموا بإصلاح أنفسكم، وإذا لم تعملوا على خدمة الإنسانية عند نيلكم السلطة والقوة، وبدأتم ظلم الناس واضطهادهم وإلحاق الأضرار بأرواحهم وأموالهم، فتذكروا أن فوق رؤوسكم إلها غالبا قادرا على أن يعاقبكم وعلى أن يسلب القوة من أيديكم. فخافوا الله القادر على أن يحوّلكم من ملوك إلى متسولين، ومن أثرياء إلى فقراء، ويجعلكم بعد العزة أذلاء.

وبذكر (حكيم) بيّن أنه ليس في أفعاله أي ظلم، وإنما كل أفعاله تنطوي على حكم عظيمة، فلن يكون في عقوبته ظلم وإنما إصلاح الإنسان. ولو أن الناس كفّوا عن همجيتهم، وأنشئوا علاقة بالله تعالى، وجعلوا خدمة الناس شعارا لهم، وتعاملوا بصدق وسداد وأمانة، وطهروا قلوبهم من كل غش وخداع، وأصبحوا طيبي الباطن صالحي القلوب، متحلّين بمحاسن الأخلاق، خاشعين لله.. فلا بد أن يرحم الله عباده ويستجيب أدعيتهم، ويحول فشلهم إلى نجاح، وذلتهم إلى عزة.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٢١١)

التفسير: لقد بين الله هنا أن هؤلاء الكفار الذين يعارضون المسلمين، وهؤلاء المنافقين الذين يوافقون الكفار في آرائهم.. يحلمون بهلاك الإسلام. إنهم في الظاهر يتربصون يوما يتم فيه القضاء على الإسلام، وتتمكن القوى الشيطانية من الاستيلاء على الحكومة الإلهية، ولكن الحقيقة أنهم بأعمالهم هذه ينتظرون يوما يأتيهم الله فيه في ظلال السحب.. يعني يدمرهم ويهلكهم بأسباب خفية. ينتظرون أن ينـــزل عليهم الملائكة من السماء فتمزقهم، وتظهر آية إلهية بينة متألقة تحسم كل هذه النزاعات الناشبة كل يوم، وهكذا يرى الجميع ما يحكم الله به. ولسوف يحدث هذا في آخر الأمر، وسوف يظهر الله لأعينهم يوما ما، وسوف يرون هلاكهم محلقا فوق رؤوسهم.

وفعلا، في غزوة بدر ظهر الله لهم من خلال السحب. فقبل بداية المعركة أنزل الله مطرا ألحق بالكفار ضررا بالغا من الناحية الحربية. ونفع المسلمين نفعا عظيما. كما أن الله تعالى أنزل ملائكته تثبت قلوب المؤمنين وتقوِّيها، وتبث الرعب في قلوب الكفار، بل لقد رأى عدد منهم ملائكة الله بأعينهم عندئذ(الأنفال: ١٠ والسيرة النبوية لابن هشام، موقعة بدر). وبحسب قوله تعالى (وقضي الأمر) أهلك نخبة كبراء قريش.. حتى أن الذي كانوا يسمونه "سيد الوادي" لقي مصيره وحتفه على أيدي اثنين من صبية الأنصار(البخاري، العلم). وعمَّ مكة البكاءُ والعويل، و لم يكن بيت من بيوتها إلا وفيه مأتم.

أما اليهود فلم يكن لهذه الحرب تأثير مباشر عليهم، ولكنها كشفت نواياهم الشريرة، وهلكوا على يد المسلمين أخيرا. وهكذا رأى الكفار الآية التي طلبوها بأنفسهم، وقضي على شوكتهم وعظمتهم. وهذا نفس ما عامل به الله الأعداء الذين كانوا بعدهم، فظهر الله لهم بتجلياته القاهرة مرة بعد أخرى حتى ظهر الإسلام على العالم.

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢١٢)

التفسير: لقد سبق أن ذكرتُ عند تناول ترتيب الموضوع أن الخطاب هنا موجه إلى اليهود، وأن البحث يدور حول النبأ الإبراهيمي عن بعث سيدنا محمد ﷺ، وأنّه هو المصداق لهذا النبأ، فقد قال الله في هذا السياق (ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام)، وتنبأ بذلك عن فتح مكة على أيدي المسلمين. وقد أعلن عن هذا النبأ في وقت كان الكفار فيه غالبين حاكمين على مكة، وكان المسلمون يبحثون عن ملاذ لهم في المدينة. عندئذ أوحى الله إلى رسوله أنكم سوف تفتحون مكة، وبالتالي سوف تزول العراقيل الموجودة في طريق حجكم إلى بيت الله الحرام. ثم بيّن لهم ماذا عليهم أن يفعلوا إن أُحصروا ومُنعوا من أداء العمرة. وهكذا تنبأ عن صلح الحديبية إذ قال بأنه سيأتي على المسلمين زمن يُمنعون فيه من أداء العمرة. كما أشار بقوله (لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام) (١٩٧) إلى أن مكة سوف تصبح دار إقامة لكم في يوم من الأيام. سوف تُفتح لكم أبواب مكة، وسوف تدخلونها آمنين. وبقوله (فإذا أمنتم) أشار إلى أنكم ستكونون في أمن وأمان، وعندئذ عليكم بعمل كذا وكذا.

وبعد ذكر هذه الأنباء قال هنا للمسلمين: اسألوا بني إسرائيل: كم من آية بينة على صدق محمد ﷺ أريناهم، وإن في نبأ فتح مكة أيضا لآية عظيمة سوف تثبت صدق محمد. فالذين يكفرون بهذه النعمة العظيمة من الله تعالى –أي محمد والإسلام– ويريدون القضاء عليه.. عليهم أن يتذكروا أن الله تعالى سوف يعاقبهم عقابا شديدا. وفعلا تلقى اليهود بفتح مكة ذلة شديدة وبدأ هلاكهم بالتدريج.

وقد تعني الآية أن الله أنعم على اليهود بنعم كثيرة من قبل. ولكنهم كفروا بها. فكان أكبر نعم الله عليهم أنه بعث فيهم أنبياء لهدايتهم بالتواتر والتوالي، ولكن اليهود دأبوا على تكذيبهم وجعلوا معارضتهم شعارا لهم حتى أنهم قتلوا بعضهم. وهذا كفران بنعمة الله كبير قد صدر عنهم. أما المسيحيون –وهم فرع من اليهود

—فقد كفروا بنعمة الله كفرانا كبيرا؛ إذ اعتبروا الشريعة لعنة. ونتيجة لهذا التمرد المستمر من جهة اليهود نزع الله منهم نعمة النبوة، لأن من سنة الله تعالى أنه إذا كفر أحد بنعمته حرمه منها، وأنزل به عذابا طويلا من آلام وهموم وحسرة وقنوط.

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢١٣)

التفسير: يقول الله تعالى إن هؤلاء لا يدركون الآن حقيقة هذه الأنباء. لأن الدنيا ماثلة أمامهم بكل زخارفها ومفاتنها، وقد ثَمِلوا بقوتهم وأموالهم حتى قالوا في أنفسهم: أنى للمسلمين أن يُلحقوا بنا الهزيمة؟ بل يسخرون منهم بسبب هذه الأنباء ويضحكون منهم، ويعيروهم قائلين: نحن نحصل على جزائنا نقدا ويدا بيد، فأين جزاؤكم؟ ولكن هؤلاء الكفار سيدركون في يوم قريب كيف نلحق الهزيمة بهم ونكتب الغلبة للمسلمين. فقال: (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة).. عندما يأتي يوم القيامة سوف يتغلب المتقون على الكفار، ولا شك أن مشهد (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) سوف يتكرر مرة بعد أخرى بعد الموت، عندما يدخل الكفار جهنم، ويدخل المؤمنون الجنة ويصبحون فوقهم للأبد.. لأن الآخرة ليس بها مباراة حتى يكون هناك احتمال لتفوق أهل النار على أهل الجنة في أي وقت، ولكن الحقيقة أن الناس لا يعتبرون بما سوف يحدث يوم القيامة لأنه لم يأت بعد، فلا يمكن أن يقدَّم أمامهم كحجة أو دليل على صدق الإسلام.

إذًا، فالمراد من يوم القيامة هنا إنما هو ذلك اليوم الذي تمَّ فيه فتح مكة على يد محمد رسول الله ﷺ ولحقت الهزيمة بالكفار. اليوم الذي رأت فيه الدنيا مشهدا عظيما عجيبا. فالذي كان وحيدا بدون معين ولا نصير، وكان عرضة لاضطهاد القوم.. أصبح حاكما. أما الذين كانوا ملوكا وحكاما للبلد فأصبحوا محكومين

خاضعين. وبقوله (والذين اتقوا) نبّه المؤمنين أنكم أحوج ما تكونون إلى التقوى إذا أردتم تحقيق غلبة حقيقية. نعم، إن الإيمان متاع غال، ولكن إذا لم يصحبه العمل فلا قيمة له عند الله.

وقوله: (والله يرزق من يشاء بغير حساب) ليس في حق الكفار وإنما هو في حق المسلمين. عندما ينال الإنسان شيئا بغير حساب فمعنى ذلك أن يُعطى أكثر مما يستحق كجزاء. أما عندما يُعطى بحساب فيأخذ بقدر ما يستحق. وفيه إشارة إلى أن المؤمنين سوف يُعطون جزاء أكثر كثيرا مما يستحقون.

كما قال فيه للكفار إنكم ستحاسبون على ما عندكم، وتُسألون كيف أنفقتموه. أما ما يناله المسلمون فلا يحاسبون عليه. أو كأنكم أيها الكفار.. تعملون كموظفين وعمال، وتستوجبون العقوبة إذا خنتم في هذه الأموال. ولكن ما يُعطى المؤمنون فهو كهدية.. لهم حق التصرف الكامل فيها.

الحقيقة أن المعاملات على نوعين: ما يتم بين الأصدقاء، وما بين السيد وخدمه. ولما لم يكن هناك غيْرِية أو دُونِية بين الأصدقاء لذلك يقول الله تعالى: إننا نعطي المؤمنين بغير حساب ونعاملهم معاملة الأصدقاء. والدليل على ذلك أن الرسول ﷺ قال: سوف يدخل أمتي في الجنة سبعون ألفا بغير حساب (البخاري، الرقاق). وأما إذا كانت هناك غيرية ودونية بين الإنسان ومن سواه فإنه يحاسبه بشدة ويجازيه بحساب. لذلك لا نجد في القرآن في حق الكفار أنهم يُعطَون بغير حساب، وإنما ورد في حقهم (إن الله سريع الحساب) (آل عمران: ٢٠). وقال النبي ﷺ (من نوقش الحساب عُذّب)، فسألته السيدة عائشة: ألم يأت في القرآن (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) فقال النبي ﷺ: (فذلك العرض) (المرجع السابق).. أي المراد بالحساب هنا أن يكون حسابا دقيقا.. وإلا فإن المؤمن يحاسب حسابا عابرا.

ويعني قوله (والله يرزق من يشاء بغير حساب) أيضا أنه سوف يجازيهم جزاء لن ينقطع. ولما كان الوعد في هذه الآية عن الغلبة المادية الدنيوية فيعني أن الله سوف

يجزيهم بأكثر مما بذلوا من تضحيات. ونرى أن ما أعطى الله المسلمين كغلمان للمصطفى ﷺ في هذه الدنيا كان بلا حساب. صحيح أن تضحياتهم كانت تبهر العيون، ولكن ما أعطاهم الله من أجر غير عادي، سواء في الدنيا أو في الدين، كان يفوق تضحياتهم كثيرا. فمن الناحية المادية بوَّءهم الله عرش المجد، ومن الناحية الروحانية أعطاهم بركات عظيمة توَّجَها بشهادة أبدية على رضوانه فقال (رضي الله عنهم ورضوا عنه) (التوبة: ١٠٠).

كما رد بقوله (والله يرزق من يشاء بغير حساب) على شبهة عند الكفار: كيف تتغلب عليهم هذه الحفنة من المسلمين؟ فقال إنه إذا أنعم على قوم أعطاهم بغير حساب. أنتم ترون حسابيا أن تغلُّب الواحد على اثنين مستحيل، ولكن الله يعامل المسلمين معاملة مختلفة تماما، فلا يتغلب الواحد منهم على اثنين منكم، بل سوف يتغلب الواحد منهم على عشرة منكم، ويرجع رافعا لواء الفتح والظفر خفّاقا.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٤)

التفسير: هناك اختلاف كثير وحيْرة بين المفسرين عن هذه الآية: فهل كان الناس أمة واحدة من الصلحاء، ثم بعث الله النبيين وحصل الاختلاف ... أم أن الناس كانوا أمة واحدة من الأشرار ثم بعث الله النبيين لهم؟ وعندي أن الناس صاروا أشرارا مختلفين، فبعث الله النبيين. والدليل على ذلك أن الله يقول في القرآن الكريم إنه يرسل أنبياءه عند فساد الناس. بل يتأكد هذا من آيتنا هذه نفسها؛ حيث قال الله تعالى (مبشرين منذرين). ويدل الإنذار على أنه كان هناك أناس قد ابتعدوا عن الله. والدليل الآخر أيضا في نفس هذه الآية وهو قوله تعالى (ليحكم بين الناس فيما

اختلفوا فيه) مما يعني أنه كان هناك اختلاف بين الناس في بعض المسائل، فجاء الأنبياء لإزالته ولتوحيد الناس.

أما لماذا قال (أمة واحدة) فجوابها ما ورد في الحديث النبوي (الكفر ملة واحدة) أي أن أصل أصول الكفر هو إبعاد الناس عن الله تعالى. كما قال أيضا إن الإسلام ملة واحدة بمعنى أن جميع الأمم التي أسلمت لله هي أمة واحدة، لأن مبادئها واحدة، وإن كان هناك اختلاف في تفاصيل الشرائع. فلا يعني قوله تعالى (أمة واحدة) أنهم كانوا على وفاق وحب، وإنما يعني أنهم جميعا كانوا كفارا ليس بينهم صلحاء. والجماعة المختلفة عن هؤلاء الكفار إنما هي جماعة المؤمنين فقط. فمهما كان الكفار مختلفين في بعض النواحي، إلا أنهم متفقون في العمل على أساس واحد.. هو إبعاد الناس عن الله تعالى.

أو يمكن اعتبار (كان) للحال وليس للماضي، ويكون المعنى أن الله قد جعل الإنسانية أمة واحدة.. أي أن الحيوانات الأخرى أيضا أمم ولكنها ليس أمة واحدة، وإنما الإنسان أمة واحدة لأنه مدني الطبع ويعيش مع أبناء جنسه، والنتيجة الحتمية لذلك هو الاختلاف والشقاق. فالنعمة العظيمة محاطة أيضا بأخطار جسيمة، وعندما يعيش الإنسان بين أناس آخرين فإنه يتعلم منهم مساوئهم أيضًا. عندما تتفاقم هذه العيوب المدنية والاختلافات الناجمة عن عيشهم معا يرسل الله أنبياءه لإزالتها، ويجمعهم على دين واحد، بدلا من أن يتخذ كل منهم له دينا بسبب العناد. ويقال: إذا كان هذا المعنى صحيحا لقالت الآية: كان الناس أمة واحدة فتشاجروا واختلفوا، فبعث الله النبيين. والجواب أن الفاء في قوله (فبعث) تدل على أن ما بعدها نتيجة لما قبلها. والواضح أن كون الناس أمة واحدة لا يترتب عليه بعْث الأنبياء، فلا بد أن يكون هناك كلام مقدَّر يشير إليه قوله تعالى (فيما اختلفوا فيه).

وقوله (وأنزل معهم الكتاب بالحق). قال (الكتاب)، و لم يقل (الكتب).. ذلك أن الكتاب يشير إلى جنس الكتاب. والمعنى أن كل نبي يأتي بكتاب، سواء كان كتابا

قديما أو جديدا. يظن بعض الناس جهلا منهم أن كل نبي يأتي بكتاب منفصل مستقل، ولكن هذا خطأ تماما، ولا يؤيده أي دليل تاريخي، ولا القرآن الكريم. ولو قالوا أنّ (أنـــزَل) تعني أن الله لا بد قد أنـــزل على كل نبي كتابا مستقلا، فنقول إن هذه الكلمة قد وردت في حق غير الأنبياء في القرآن الكريم، فهل نقول إن هؤلاء أيضا أُعطوا كتابا من عند الله؟ لا يقبل أحد بهذا القول. فمثلا يقول القرآن الكريم: (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمِنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجهَ النهار واكفروا آخِرَه لعلهم يرجعون) (آل عمران:٧٣).. مع أن الجميع يعرفون أن ما نزل على المؤمنين إنما هو ما نزل على الرسول. فلا يمكن أن يستدلوا بكلمة (أنزل معهم الكتاب)أن كل نبي يُعطى كتابا مستقلا. كما أن كلمة الكتاب لا تُثبت دعواهم. فلو كان كل نبي قد أعطي كتابا مستقلا لقال الله تعالى (أنزل معهم الكتُب) بدلا من الكتاب. و لم يقل الله ذلك، لأن هناك آلافا من الأنبياء و لم تنزل آلاف من الكتب معهم.

وقال الله في موضع آخر من القرآن الكريم: (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفَّينا من بعده بالرسل) (البقرة: ٨٨).. أي أرسلنا من بعد موسى الأنبياء بالتوالي، ولكن كانت مهمتهم فقط أن يروجوا للتوراة ويدْعوا الناس للعمل بأحكامها.

فالحقيقة أن الله قد بيّن أنه لا بد أن يكون مع كل نبيٍّ كتابٌ عندما يُبعث.. أي ليجعل الناسَ يعملون بكتاب من عند الله تعالى. لم يقل القرآن هنا إن كل نبي يأتي بكتاب جديد، وإنما قال يأتي بكتاب، ويمكن أن يكون هذا الكتاب قديما أو جديدا. فعقيدة أنه لا بد لكل نبي أن يأتي بكتاب جديد مستقل عقيدةٌ تتعارض صراحة مع القرآن الكريم، بل تتعارض مع تاريخ الأنبياء الطويل.

وقوله (ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه). ضمير الغائب للفعل يحكم يمكن أن يرجع إلى الله تعالى، أو إلى الرسول أو الكتاب، أي أن الله أو رسوله أو كتابه يزيل الاختلاف بين الناس. وهذا يؤكد أن الاختلاف يكون قبل بعث الأنبياء فيزيله الله ورسوله وكتابه.

وقوله (وما اختلف فيه إلا الذين أُوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم) يدعو إلى الشك في أن الاختلاف حصل بعدهم، و لم يكن قبلهم، ولكن هذا غير صحيح، لأنه بقوله (إلا الذين أُوتوه) بيّن أن هذا الاختلاف هو عن الكتاب، وهذا ما يحدث حتما بمجيء الأنبياء، وليس هو ذلك الاختلاف الذي يكون قبل الأنبياء في صورة الفرقة والتشتت. فالاختلاف الأول هو ما كان بينهم رغم كونهم أمة واحدة، أما هذا الاختلاف فهو اختلافهم عن صدق الكتاب بعد أن قام الدليل عليه.

ولو قيل إنه لم يذكر من قبل مثل هذا الاختلاف الثاني.. فما معنى قوله (وما اختلف فيه)؟ والجواب: هناك سؤال مقدر ينشأ من قوله تعالى (ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه).. وهو إذا كان الغرض من بعث الأنبياء هو إزالة الاختلافات.. فما الفائدة من بعثهم وقد خلقوا الاختلافات بمجيئهم؟ فردّ الله تعالى: إن هذا الاختلاف غير الاختلاف السابق. ومثال الاختلاف الأول أن يمرض أحد ولا يكون هناك دواء، ومثال الاختلاف الثاني أن يوجد الدواء للمريض ولكنه لا يتناوله. فالاختلاف الأول اختلاف الاضطرار وكان تداركه واجبا. أما هذا الاختلاف فقد حصل في معرفة الحق. الاختلاف الأول كان فسادا في فساد، أما هذا ففيه أمل لهداية الناس، فقد جاءهم الحق، فليقبلوه إذا أرادوا. أما إذا اختلفوا الآن فلا بد أن يكون هذا الاختلاف بسبب عنادهم.

والجواب الثاني أن هذا الاختلاف الثاني قد حدث من قِبَل الذين أوتوا هذا الكتاب، أي لم يقع هذا الاختلاف إلا من قبل الذين أرسل إليهم هذا التعليم أو هذا النبي، أما الآخرون فلا يختلفون في هذا التعليم؛ وفي هذا دليل على أن الاختلاف السابق ليس بسبب مجيء هذا النبي أو الكتاب أو التعليم، لأنه لو الأمر كذلك ما مدح هذا التعليم أولئك الذين لم يخاطَبوا به أو الذين جاءوا بعده. الواقع أننا لو نظرنا لوجدنا أنه بعد مضي عهد الأنبياء يمدح الناس تعليمهم.. كما يفعلون اليوم بتعليم المسيح وإبراهيم وموسى وزردشت عليهم السلام، فكل الناس يمدحون هذه التعاليم قائلين ما أروعها! بينما يعارضون الكتاب الموجه إليهم. فثبت أن التعليم أو النبي ليس

سببًا للاختلاف، وإنما يحدث الاختلاف بعد أن يأتي النبي بتعليم، فيقول الناس: لماذا نطيع هذا الرجل؟ أو كيف نتبع هذه التعاليم وهي تخل براحتنا؟

وقوله تعالى (بغْيا بينهم) يبيّن أيضا أن هذا الاختلاف الثاني يرجع إلى ما يوجد بينهم من اختلاف سابق. فهؤلاء يكونون معتادين على البغي والعداوة فيما بينهم قبل مجيء النبي أيضا، وهذه العادة هي التي تدفعهم إلى معارضة النبي، فيقولون: كيف يمكن أن نتبع هذا الشخص؟ أو لماذا نصدقه ما دام فلان قد صدّقه، أو أنه يتبع عقيدة كذا وهي عقيدة أعدائنا. فلن نصدقه حتى لا نهان أمام الأعداء. فمثلا في هذا الزمن رفض الأحناف تصديق سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود لأنه قد أيّد الوهابيين وأهل الحديث في أمر كذا وكذا. وكذلك قال الوهابيون: لا نصدق به لأنه قد أيد الأحناف في عقيدة كذا وكذا. فسبب اختلافهم مع النبي هو ما يوجد فيهم من عداوة سابقة قبل مجيئه.

والحقيقة أنه بمجيء النبي تتكون جماعة تؤمن بالله وتعمل بتعاليمه، لذلك فإن مجيئه يؤدي إلى اختلاف في الظاهر ولا شك، ولكن صاحب البصيرة الروحانية يدرك أن قوة الاختلاف تضعف بمجيء النبي.. لأن عدد الذين ابتعدوا عن الله يقِلُّ وينقص، بتواجد جماعة كبيرة تعبد الله وحده. فالاختلاف لا يكون بسبب الكتاب، وإنما يؤدي الاختلاف السابق إلى الاختلاف اللاحق حول الكتاب، أو إنما البغي الموجود بينهم –والذي لا دخل للرسول أو أتباعه فيه–هو الذي يدفعهم إلى الاختلاف مع هذا الكتاب، ويؤكد أنهم هم الذين يبغون.. مع أن الله يهيئ لهم ما فيه مصلحتهم ورقيهم.

وبقوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) قدّم ردا رابعا على هذا الاعتراض وقال: لا يمكن أن يُتهم الأنبياء بإثارة الاختلاف. ألا ترون أنه لم يكن قبلهم مَن يقبل الحق، وبمجيئهم وُجدت الآن جماعة تقبل الحق؟ فالواقع أن الاختلاف لم يُخلق بمجيئهم. وإنما انمحى بهم. فعلى سبيل المثال: لو كان هناك مائة ألف واقعين في أوهام وظنون عن الله تعالى، وقَبِل ألفٌ منهم هذا الرسول، وظل

الآخرون على ما هم عليه، فمعنى ذلك أن الاختلاف قد قَلَّ. فقد خرج ألف شخص من وحْل الاختلاف الخيالي، وثبتوا على صخرة اليقين والثبوت، بحيث يستطيعون أن يشهدوا جلال الله تعالى.

فمعنى هذه العبارة أن الله هدى المؤمنين إلى أمر اختلف فيه الناس. والضمير في كلمة "فيه" في قوله (وما اختلفوا فيه من الحق) يرجع إلى الحق. فالحق صفته. والمعنى أن الشيء الذي اختلفوا فيه صفته أنه حق أو من الحق؛ فهدى الله إليه المؤمنين. أو تكون (مِن) بيانية، والمعنى أن الله هداهم إلى شيء اختلف فيه الناس مع أنه حق.

وهناك سؤال: إذا كانوا مؤمنين مسبقا.. فما معنى قوله (فهدى الله الذين آمنوا)؟ والجواب أن الإنسان في بعض الأحيان ينادي شخصا باسمه الحالي ويشير إلى حاله السابق ...كما يقال: هذا الملك عندما وُلد حدث كذا وكذا. فالحديث عنه عندما كان مولودا وقبل أن يصبح ملكا. أو يقولون هذا العالم عندما كان يدرس في المدرسة، ومع أنه صار عالما بعد الدراسة، و لم يكن عالما وقت الدراسة في المدرسة. إذا فـــ (المؤمنون) هي صفتهم الحالية وردت في ذكر أحداث سابقة تشريفا لهم، وكي لا ينسب إليهم الكفر في أي وقت. أو أطلق عليهم هذا الاسم نظرا لقدرات إيمانية خفية فيهم.. أي أنهم كانوا يتأهلون للإيمان ويعملون ما يؤدي إليه.

فقوله تعالى (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه الحق بإذنه) يبين أن الناس لما خالفوا تعاليم الله فإنه وفّى في حق حفنة من المؤمنين الوعودَ التي قطعها مع قوم النبي ككل، وحقق لهم كل الانتصارات التي كانت مقدرة للقوم ككل. وإلى ذلك يشير حديث للنبي ﷺ يقول فيه إن لكل شخص بيتين: بيت في الجنة وبيت في جهنم (البخاري: التفسير). وعندما يظلم أحد مؤمنا فإن الله يأخذ بيت الظالم في الجنة ويعطيه للمؤمن، ويعطي الظالم بيت المؤمن في جهنم. وبما أن الكفار خالفوا كتاب الله بدون مبرر، وعرَّضوا المؤمنين إلى أنواع العذاب.. أمر الله أن يعطي هذه الحفنة من المسلمين كل النعم المقدّرة للقوم كله. ويحرم القوم منها بسبب ظلمهم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ(٢١٥)

شرح الكلمات:

مسَّتهم –مسَّ الشيءَ لَمَسه؛ أفضى إليه بيده من غير حائل (الأقرب).

البأساء–الشدة؛ واسم للحرب والمشقة والضر (الأقرب).

والضراء–الزمانة والشدة أي المجاعة والقحط، والنقص في الأموال والأنفس (الأقرب).

التفسير: أشير في هذه الآيات إلى ما قدره الله للمسلمين من ابتلاء ومحن. لقد قال من قبل إنه عندما تسود الضلالة على الدنيا يبعث نبيّه، فيخالفه الناس، والآن قال: لا تظنوا أنكم تحققون الرقي من دون محن وابتلاءات، بل أن رقيكم منوط بها، كما كانت الابتلاءات سببًا لرقي من كان قبلكم. فصوَّر هذا المشهد وقال: (مستهم البأساء والضراء وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله).. مستهم البأساء والضراء.. أي لحقت بهم الخسائر في أموالهم ونفوسهم.

والسؤال هنا: هل يأتي على أنبياء الله وعباده الصالحين وقت ييأسون فيه من نصره عز وجلّ حتى يقولوا متى نصر الله؟

إن الأنبياء وأتباعهم أسمى تماما من اليأس الذي يُتصور هنا في بادئ النظر.. كما قال الله تعالى (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) (يوسف:٨٨). الحقيقة أن كلمة 'متى' في اللغة العربية لا تفيد أن قائلها يائسٌ، وإنما تعني أنه يريد أن يُضرَب له موعد لأمر هو مهتم به، فلم يقولوا هنا (متى نصر الله) يأسا وقنوطا، وإنما قد التمسوا بهذه الكلمات موعد نصره. فكأنهم–لمزيد من الاطمئنان والسكينة –التمسوا من الله موعدا لنصرته المترقَبة، وأرادوا أن يترل نصره عاجلا. وهذا أسلوب مؤثر للدعاء. ويتضمن إشارة إلى أنهم تعرضوا للابتلاء والمهانة لدرجة أنهم زلزلوا حتى اضطروا للدعاء والابتهال. وهذا هو الغرض الحقيقي للابتلاء.. أي أن

تتقوّى صلة المؤمنين بالله تعالى. فعندما تتحمس قلوبهم للدعاء يُنزل الله نصرته من السماء فتنتهي مصاعبهم ومحنهم.

ثم إن كلمة "حتى" تأتي بمعنى " كي"، كما ذكره النحويون في كتبهم، فقد قالوا: "حتى" ترادف "كي" التي تأتي لبيان السبب والتعليل؛ وأسْلِم حتى تدخل الجنة.. أي لكي تدخل الجنة (مغني اللبيب). وقد وردت "حتى" بمعنى كي في موضع آخر في القرآن (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) (المنافقون:٨).. أي: كي ينفضوا. وبناء على ذلك فتعني الآية أن هذه الزلزلة التي أحدثناها بأيدي الكفار ضد المؤمنين إنما كنا نستهدف بها أن يسألنا عبادنا فنعطيهم. فلكي نجذب أنظارهم إلينا ونظهر قوة فضلنا.. ظللنا ساكتين إلى أن تولدت في قلوبهم الرغبة للدعاء والابتهال إلينا. وقد فعلنا ذلك كي تزداد قلوبهم حبّا لنا من ناحية، ومن ناحية أخرى لكي يزداد إيمانهم لرؤية نصرتنا الإعجازية، ولكي يهتدي بذلك من الكفار من عنده بقيةٌ من التفكر والاعتبار. وعندما يتحقق هذا الغرض فإننا نقول لهم: ها قد جاء نصرنا.

يجب أن نتذكر بأن الله يبتلي الإنسان بقدر طاقته، فلا يمكن أن يبتليه بما يفوق قدرته وطاقته. ولذلك قال الله تعالى: (لا يكلِّف الله نفسا إلا وسعها) (البقرة:٢٨٧).. إنه يحمّل الإنسان ما يستطيع تحمله، اللهم إلا إذا كان الله يريد إهلاك قوم. أما الابتلاء الذي يكون لتحقيق الازدهار لقوم فلا يمكن أن يفوق قدرتهم، وإنْ كان المؤمن يتوهم أنه فوق قدرته، ويتبين خطأه فيما بعد، وهكذا لا ينفك مستعدا لتحمل اختبارات أعظم. إذن، فكلما تشجَّعَ على تحمل الابتلاءات تقدم. وهكذا فإنه يعرف قوة إيمانه، ويشكر ربه بدلا من أن يشكو إليه، وكذلك يجد الفرصة ليسبق الآخرين في مجال التضحيات، فيرتقي ويزدهر. فللاختبارات فائدتان: الأولى –أن يعرف بها الإنسان قوة إيمانه، ويتبين إلى أي مدى يستطيع تحمل الأذى في سبيل الله، والثانية–أن يجد الجرأة للتقدم إلى الأمام.

ومرور المؤمنين بالابتلاء ضروري لدرجة أنه لم تكن هناك جماعة نبيٍّ إلا ومرت بفترة من الابتلاءات . لذلك يقول الله تعالى: لا تظنوا أنكم تنالون -مجانًا- جنَّتي التي لا يمكنكم تصور سعتها، أو تحققون الإنجازات والانتصارات المادية التي وعدتم بها من دون أي تضحية وبدون أن تمروا بالابتلاءات التي مر بها السابقون. كلا، لا بد أن تمروا بالمحن لتحقيق الفلاح والنجاح. لقد تعرضوا للأذى البدني والخسارة المالية، واضطروا للتخلي عن ممتلكاتهم، وتركوا أهليهم وأقاربهم، وذاقوا ألم الجوع والضرب والقتل وزلزلوا بكل الطرق، وكما يميل البناء يمينا ويسارا بتأثير الزلزال، كذلك ظن الراءون أنهم على وشك السقوط، ثم ازدادت المحن والشدائد حتى قال العدو أنهم قد سقطوا فعلا.. عندئذ توسّل الرسل والمؤمنون وابتهلوا إلى الله: متى نصر الله؟ يا رب، لقد وصل الابتلاء لدرجة أننا نتوسل إليك أن تأتي لنصرتنا وتحقق لنا الفوز.

فالظن بأن الرسل والمؤمنين تشككوا في نصر الله غير صحيح، لأنه أولا-قال (مستهم الضراء).. أي أنهم بالفعل وقعوا في الشدائد وتعرضوا للمشاكل؛ ولكن الشدائد لم تؤثر في قلوبهم، وإنما كان تأثيرها سطحيا، وكانوا رغم تعرضهم للشدائد ثابتين رابطي الجأش.. فكيف يمكن أن ييأسوا؟

وثانيا-يكون السؤال أحيانا للتوسل. يسأل الإنسان: متى تفعل ذلك؟ ولا يعني أنه يئس منه، وإنما يريد القول: افعل من فضلك. فمثلا: لو سأل أحدٌ الحاكم: متى يأتي دوري؟ فلا يعني أنه قد يئس من مجيء دوره، وإنما هو يقول: يا ليتك تدعوني أنا أيضا!

في غزوة بدر دعا النبي ﷺ: (اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبدا) (مسند أحمد،ج١، ص٣٠). ولا يعني ذلك أن الرسول ﷺ لم يكن يؤمن بوعد الله تعالى —معاذ الله، وإنما دعا بهذا الأسلوب ليستثير الغيرة الإلهية. وكذلك عندما عُلِّقَ على الصليب المسيح ابن مريم —عليه السلام —قال: إلهي.. إلهي، لماذا تركتني؟ (متى ٢٧:٤٦). ولم يكن المسيح يعني بذلك أن الله تركه في هذا الوقت العصيب فعلا، وإنما كان يقصد: إن قلبي قلق.. فتعال لنجدتي بسرعة.

فمثل هذا الدعاء لا يعني أن الداعي لا يؤمن باستجابة الدعاء وقد يئس منه، وإنما يدعو هكذا استثارة للغيرة الإلهية. كذلك المؤمن عندما يقول: "متى نصر الله " فإنما يرجوه ليسرع إلى نصرته. فيقول الله له: ها قد جاءتك نصرتي. فانظروا عندما ذهب الرسول ﷺ إلى فتح مكة مع جيشه لم يكن يخطر ببال أهل مكة أنه سوف يهاجمهم. كان أبو سفيان قد رجع لتوِّه من المدينة بعد مقابلة النبي، وعندما رأى الناس جيش النبي ﷺ قالوا: هذا جيش محمد. فقال أبو سفيان: هل جننتم؟ إنني قادم من المدينة و لم يكن هناك أي جيش. ولكن بعد قليل جاء المسلمون وأسروه (البخاري، المغازي)، وفي اليوم التالي تم فتح مكة. إن نصر الله هكذا يأتي فجأة ويحقق النجاح للمؤمنين.

لقد تعرض المسيحيون الأوائل لمصاعب شديدة على مدى ثلاثة قرون، ولكنهم سمعوا ذات يوم أن الملك الروماني قد تنصَّر وأعلن أن المسيحية هي الدين الرسمي للبلد. وهكذا بكلمة واحدة انتهت سلسلة مصائبهم.

فقوله تعالى (متى نصر الله) يعني أن المؤمنين يدعون: إلهنا. لقد زادت وطأة الابتلاءات علينا، فلتأت نصرتك، ويرد الله عليهم (ألا إن نصر الله قريب).. أي ما دامت هذه الابتلاءات تأتيكم لتزدهروا وترتقوا، فلا تخافوا. إذا كان في نفوسكم عيوب ترون أن الله يعاقبكم عليها فلا شك أن نصرته لن تأتيكم. أما إذا كنتم مطهرين من العيوب، أقوياء الإيمان، سائرين على طريق التقوى، متحررين من وساوس الشيطان.. فلا خطر ولا خوف عليكم من الابتلاءات.

الواقع أن المؤمن الصادق عندما يمر بالمحن ابتلاءً من الله فإنه على يقين من أن نصر الله قادم وراء الابتلاء. وقد عبر مولانا الرومي عن هذا المعنى في بيت شعر له بالفارسية معناه: عندما يبتلى الله قوما بابتلاء يجعل تحته كنزا من النعم الخفية "(مثنوي معنوي للرومي، ذكر كرامات شيبان الراعي ص١١٣).

فالابتلاء ليس فيه أي خطر، وإنما معناه أن الله سوف يحقق للمبتلي ازدهارا ورقيا. إنما الخوف يكون من النفس. فيجب أن يحاسب الإنسان ويراقب نفسه، ويرى هل فيه ما يؤدي به إلى الهلاك. إذا كان خاليا من الوساوس الشيطانية، قوي الإيمان، مليئا قلبه بالشكر والامتنان لله تعالى.. فليفرح عند نزول الابتلاءات، لأن الابتلاء في مثل هذا الحال بشارة بإنعامات عظيمة جدا. أما إذا أحاطت الوساوس بالإنسان عند الابتلاء، وشعر بضعف في الإيمان، فليتأكد أن هذا الابتلاء ليس باعث خير ورقي له، وإنما هو سبب شر وهلاك له. فالإيمان الحقيقي والأصيل هو ذلك الذي يناله الإنسان بعد المرور من بوتقة الابتلاءات.. لأنه ينال به حياة أبدية.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٦)

التفسير: لما بين الله في الآيات السابقة أن الأمم الماضية أيضا مروا بأنواع من الابتلاءات في الأموال والأرواح، وكانت سببا في رقيهم القومي، كما هو بين من قوله (مستهم البأساء والضراء).. وسمع الصحابة ذلك اشتاقت نفوسهم إلى التضحيات، ودفعهم ولَعُهم بالترقيات الروحانية لسؤال النبي ﷺ: يا رسول الله، إذا كان الرقي القومي يتطلب تضحيات مالية فدُلَّنا على ما ننفق حتى لا نتخلف عن أحد في ميدان العشق هذا.

والسؤال التالي المتوقع طبعا يكون عن تضحية النفس، وقد رُدّ عليه في الآية التالية (كتب عليكم القتال).. مما يدل على ما يتميز به القرآن الكريم من ترتيب قد بلغ الغاية في السمو والروعة.

يعترض البعض على هذه الآية ويقولون إن الجواب هنا لا يتناسب مع السؤال. لقد سُئل ماذا ينفقون، فقيل لهم أنفقوا أموالكم على كيت وكيت.

هذا الاعتراض ناجم عن قلة التدبر، لأنه ما دام قد قال الله تعالى: (ما أنفقتم من خير) فقد رُد على السؤال وقال: أولا-ليس هناك حدود للإنفاق، أنفقوا بحسب توفيقكم. وثانيا —كل ما تنفقون يجب أن يكون من مال طيب. فالذين يكسبون الحرام ثم ينفقون منه في سبيل الله تعالى، ويحسبون أنهم قد كفَّروا عن إثمهم، فهم على خطأ، لأن الله تعالى إنما يتقبل ما هو خير. وثالثا —يجب ألا يكون حلالا فقط بل وطيبا أيضا. أي لا يكون ثقيلا على نفس من يتلقاه منكم.

ولو قيل هنا: الخير يعني المال، فكيف قلتم إن معناه المال الطيب الحسن؟ والجواب أن الخير يعني في الحقيقة أفضل الشيء. المال إنما يكون خيرًا إذا اكتُسب من طريق طيب. فقد قال الإمام الراغب: قال بعض العلماء لا يسمّى المال خيرًا حتى يكون كثيرا ومن مصدر طيب (المفردات). فبقوله (ما أنفقتم من خير) أشار القرآن الكريم باليقين إلى أن أنفقوا في سبيل الله تعالى من طيب أموالكم.

فإذا قيل: لو أن شخصا اكتسب مالا من حرام وتصدق من طيِّب ماله الذي اكتسبه من حلال، أفلا يندرج تحت هذا الحكم؟ فالجواب أن القليل من النجاسة ينجس الشيء الكثير الطيب، فمهما كان كسب الراشي والسارق وغاصب الأموال من الحرام قليلا، فإن هذا القليل ينجس ماله كله ويفسده، ولن يكون عاملا بهذا الأمر القرآني.

وإذن فقد تناولت الآية جوابا كاملا على ما سئل، بل زادت وبيّنت مصارف هذا المال أيضا. فكأن الآية أشارت إلى أن إنفاق المال ليس صعبا بقدر ما يكون الإنفاق في محله صعبا. فقال: أنفقوا، ولكن بحذر، وآتوه المستحقين. إنه من كمالات القرآن الكريم أنه بكلمات وجيزة يبيّن مواضيع واسعة. انظروا هنا أيضا كيف أنه بكلمات معدودة رد على السؤال، كما أضاف أن أنْفِقوا من المال الحلال، ويجب أن يكون هذا الحلال طيبا. فمثلا لو تصدق أحد بحذاء ممزق لفقير لا يستفيد به، فصحيح أنه أنفق من مال حلال، ولكنه ليس طيبا، لأن آخذه لن ينتفع به. ولو جاء سائل يطلب طعاما، ولكن المتصدق لا يعطيه من الطعام الجاهز في البيت وإنما

يعطيه طحينا. فهو ينفق من حلال ماله، ولكنه لا يسد حاجة السائل، فهو ليس طيبا، وإنما الإنفاق الطيب أن يكتفي بطعام أقل ويعطي السائلَ من طعامه حتى يتناوله فورا ويسد جوعه. ثم زاد على ذلك وقال إن الأنسبَ هو الإنفاقُ على فلان وفلان. سبحان الله! ما أروع هذا الكلام إعجازا!

وهناك أمثلة أخرى في القرآن الكريم يرد فيها على سؤال السائل. ويزيد الرد موضوعا إضافيا. وكان الرسول ﷺ يتكلم أيضا بمثل هذا الكلام. سأله أحدهم مرة عن ماء البحر فقال: هو الطهور ماؤه، الحلُّ ميْتته (الترمذي، الطهارة). فبيَّن أن ماء البحر طاهر وأن ميتته حلال.. لا ضرورة لذبح الحيوانات البحرية كالأسماك. فانظروا كيف رد على السؤال. وأضاف موضوعا زائدا.

ثم يجب أن نرى ما إذا كان هذا السؤال عن أقسام الصدقة أيضا.. أي أنهم يسألون في أي مناسبة ننفق؟ فأرى أن هذا هو المراد على الأغلب. لأن السؤال عن كمية الصدقة يأتي فيما بعد. والسؤال بكلمة "ماذا" يكون أحيانا عن عين الشيء وأحيانا عن صفاته. يقول النحويون إن السؤال إذا كان عن الصفات فلا بد أن يكون عن صفات العاقل فقط. ولكن لا مبرر لهذا التحديد، وأرى أنهم لم يسألوا هنا عن الأشياء التي ينفقونها، وإنما سألوا عن مواصفات الصدقة، فأجاب الله أنه ليس هناك شيء معين تتصدقون به، بل أنفقوا كل شيء خير.. أي من مال طيب، وبحسب قدراتكم. وزاد على ذلك أن ما تنفقونه بحسب إيمانكم وظروفكم يجب أن ينفَق في جهات كذا وكذا.

ثم أضاف (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم).. أي للتقرب إلى الله لا تحصروا أنفسكم في عمل حسنة واحدة، وإنما عليكم أن تعملوا كل الخيرات، وتفتحوا عليكم باب كل خير وبركة، فأمامكم حياة لا نهاية لها، تقوم فيها أراوحكم برحلة التقرب إلى الله، سالكة دقائق الطرق. فلا تكتفوا بحسنة واحدة أو بعض الحسنات، بل يجب عليكم أن تتنافسوا فيها كلها، موقنين أن الله عليم يرى كل حركة وسكون منكم، وسوف يجازيكم أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(٢١٧)

التفسير: لا تعني هذه الآية أن الصحابة كانوا يكرهون القتال جُبنا منهم –معاذ الله، وإنما سبب كرههم للحرب أن المؤمن يكون مسالما، ويسعى كل السعي ليتجنب الحرب، ويحسم الأمر في نطاق السلم والصلح؛ وإذا حارب العدوَّ فمضطرا. كان الصحابة رضوان الله عليهم –مسالمين، وكانوا يريدون القضاء على هذه الفتنة بدون قتل ولا إراقة دماء إن أمكن؛ ولكنهم اضطروا للحروب. فليس في ذلك ذم ولا لوم، وإنما هو مديح وثناء عليهم. فكراهيتهم للحرب منقبة لهم، إذ إنهم رغم الشرور والفتن من قبل الأعداء يريدون حسم الأمر بالصلح، ويرونه أفضل.

يقول الله تعالى: إنكم لا تحبون القتال، مع أن العدو يعتدي عليكم ويؤذيكم، ولكنني أعلم أن هذا العدو لن يرتدع ويكفّ عن هذه الفتنة بدون أن يكون بينكم وبينه قتال. فالوسيلة الوحيدة لإصلاحه هي الحرب، وأن يعاقَب على ما فعل.

لقد انخدع المسيحيون بهذه الآية وقالوا: لما كان المسلمون يخافون الحرب فلا شك أنهم كانوا جبناء (تفسير القرآن لويري، تحت هذه الآية). ولكن هؤلاء النصارى الذين يرمون الصحابة بالجبن لا ينظرون إلى شجاعة الحواريين عندهم! أيّ شجاعة وبسالة أبدوا عندما تم القبض على المسيح! الإنجيل شاهد على أنه لم يكن أحد من هؤلاء التلاميذ لينصر المسيح بشجاعة، بل إن واحدا منهم أنكر المسيح ثلاث مرات، وأما الآخرون فخذلوه ساعة العسرة هذه. فالنصارى الذين يقدسون الحواريين الذين هذا هو مبلغ إيمانهم وشجاعتهم-إذا طعنوا في الصحابة أثاروا العجب. دأبهم غريب عجيب. إذا ذُكر خروج الصحابة للحرب يعترضون عليهم. وإذا قيل لم يكن الصحابة يريدون الخروج يعترضون عليهم أيضا. وإذا كان هناك ذكر للغنائم قالوا: هم طامعون يقاتلون لسلب أموال الآخرين. أما هنا فيصمونهم بالجبن والخوف من الحرب. إذا كان الصحابة يحاربون رغبة في سلب الأموال

ونهب الناس.. فلماذا يكرهون القتال؟ وإذا كانوا يكرهون القتال.. فأين رغبتهم في إراقة الدماء؟

الحقيقة أن الإنسان عندما يُلبس الكلام تفسيرا خاطئا فإنه يقع في وحل من التناقض هكذا. فليس المعنى الصحيح إلا ما ذهبتُ إليه من أن المؤمن يكون دائما مسالما، وإذا أجبر على الحرب يحارب، وإلا فإنه يؤثر ألا تضيع الأرواح وتزهق النفوس.

قوله (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم). الحقيقة أن علم الإنسان وعقله محدودان جدا. ولذلك أحيانا يخطئ الإنسان ويرى الشيء الضار نافعا، وأحيانا يرى الشيء النافع ضارا. ويرجع السبب في كلا الحالين إلى المحبة الزائدة أو الكراهية الشديدة.. أي أحيانا لا يستطيع الإنسان بسبب حبه المفرط لشيء رؤية ما فيه من أضرار، وأحيانا أخرى لا يستطيع رؤية ما في الشيء من منافع بسبب كراهيته المفرطة له. فلا يستطيع أن يأخذ قرارا يقينيا عن شيء هل هو نافع له أم ضار. وإلى هذه الحالة في الإنسان يشير الله تعالى ويقول: (عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم).. أي أنكم أحيانا تجمعون الأسباب للانتفاع من شيء، ولكن تكون النتيجة فسادا، والسبب أن هناك بعض الأسباب التي كان من الممكن أن تأتي بنتيجة صالحة.. ولكنها اختفت عن أنظاركم. وما دام هذا هو حال الإنسان، فلا يستطيع في بعض الأحيان أن يجني من الشيء النتائج المرجوة، وإنما يرى النتائج المعاكسة.. فماذا يفعل؟ علاج ذلك أن يخرَّ بين يدي الله ويتوسل إليه في ضراعة وتواضع: (اهدنا الصراط المستقيم).. يا رب، دُلَّني على طريق صحيح سَوِيّ في كل أمر، سواء كان من أمور الدين أو من أمور الدنيا.. حتى أتجنب الخطأ. يجب ألا يعتمد الإنسان على حبه أو كراهيته للشيء وإنما يتسامى عن عواطف الحب والكراهية، وينظر إلى الله تعالى فقط، ويتوسل ويدعوه أن يهديه إلى طريق صحيح سليم، وأن يجعل نيته تابعة لمشيئته الإلهية. وعندئذ سوف ينال النجاح تلو النجاح، وسوف تنفتح أمامه أبواب الخير والبركة.

ثم قال (والله يعلم وأنتم لا تعلمون).. الله عليم بأحوال وأمور لا تعرفونها. تظنون أن قتال الكفار يتنافى مع الرحمة، ولكن أحيانا يتحتم إنزال العقوبة بالشرير، أما إذا عُفيَ عنه تضرر وأضر بالآخرين. وما دام هؤلاء لن يرتدعوا عن الفساد بدون الحرب، فيجب أن تتصدوا لهم.

يَسْأَلُونَكَ عَنْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ومنْ يرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دينه فَيَمُتْ وَهوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ في الدُّنْيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢١٨)

التفسير:

يقول الله تعالى : يسألك هؤلاء عن القتال في الأشهر الحرم. وهي المحرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة، فما هي خلفية هذا السؤال.

عندما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة لم يهدأ غضب الكفار، وإنما بدؤوا يهددون أهل المدينة بأنكم أويتم أعداءنا، فليس لكم إلا أن تقتلوهم جميعا أو تطردوهم من المدينة، وإلا فقَسَما سوف نهاجمكم ونقتلكم ونسبي نساءكم وذراريكم. ولم يكتفوا بالتهديد وإنما أخذوا يعدون عدتهم للهجوم (أبو داود، الخراج). أما الرسول ﷺ فقد كان يبيت الليالي ساهرا يترقب، وكان الصحابة يقضون الليالي والسلاح في أيديهم، حتى لا يفاجئهم هجوم العدو في ظلمة الليل، ونظرا لذلك شرع النبي ﷺ يعقد الاتفاقيات مع القبائل المجاورة للمدينة. كما أنه بناء على أخبار استعداد قريش لمهاجمة المدينة بعث اثني عشر من صحابته بقيادة عبد الله بن جحش في السنة الثانية الهجرية إلى مكان يُدعى نخلة، وأعطاهم رسالة وأمرهم أن يفتحوها ويقرؤوها بعد يومين. ولما فتح الرسالة وجد فيها أمر النبي ﷺ

أن أقيموا في نخلة وأفيدونا بإخبار قريش. وتصادف أن قافلة تجارية لقريش قادمة مع أموال التجارة من الشام مرت بهؤلاء فقام عبد الله بن جحش –باجتهاد شخصي منه– وشنَّ الهجوم على القافلة، فقتل من الكفار عمرو بن الحضرمي وأسر اثنين منهم واستولى المسلمون على الغنائم، وعندما رجعوا إلى المدينة، وعرف النبي منهم بما جرى سخط عليهم سخطا شديدا وقال: لم أسمح لكم بقتالهم، ورَفَض قبول الغنائم منهم (تاريخ الخميس، غزوة بدر الأولى).

وذكر ابن جرير رواية عن ابن عباس تقول إن عبد الله بن جحش وأصحابه ظنوا خطأ أنهم لا يزالون في الثلاثين من جمادى الثانية. مع أن شهر رجب كان قد بدأ. فأثار المشركون ضجة بأن المسلمين لا يحترمون الشهور المحرمة التي يمتنع فيها القتال (تفسير الطبري). فردّ الله هنا على اعتراض الكفار وقال: صحيح أن القتال في هذه الشهور المحرمة أمر كريه حقا وإثم عند الله، ولكن الأشد من ذلك كراهةً وإثما هو أن يصدّ أحد غيره عن صراط الله تعالى، ويرفض وحدانية الله، ويهتك حرمة المسجد الحرام، ويخرج أهله منه دون جريمة إلا أن يقولوا ربنا الله الواحد الأحد. تفكرون في أمر واحد، ولا تفكرون فيما تأتونه من جرائم كبيرة من كفر بالله ورسوله، وانتهاك حرمة المسجد الحرام، وإخراج أهله منه بدون جريمة. وما دمتم ترتكبون هذه الأمور الشنيعة القبيحة، فكيف تلومون المسلمين وتعترضون عليهم؟ إنهم وقعوا في خطأ سهوا ونسيانا، ولكن ما تفعلونه عمد مقصود.

قوله (والمسجد الحرام). قال العلامة أبو البقاء إنه بدون تكرار حرف الجر هنا لا يمكن جر "المسجد الحرام"، لذلك يرى تقدير محذوف هنا هو وصد عن المسجد الحرام . وذكر صاحب الكشاف أيضا هذا التقدير (الإملاء، الكشاف). ولكن بعضهم قالوا المسجد الحرام معطوف على (به) أي كفر به وبالمسجد الحرام (روح المعاني). أما العطف بدون إعادة حرف الجر فيجوز، ومن أمثلة ذلك قول العرب: ما فيها غيرُه وفرسِه ".. أي ليس في الدار غيره وغير فرسِه. فكلمة (فرسه) هنا معطوف بدون حرف جر ظاهري.

قوله تعالى (والفتنة أكبر من القتل). الفتنة المذكورة هي نفس الفتنة التي أشير إليها في قوله تعالى (ولا يزالون يقاتلوكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) فقد أطلق كلمة الفتنة هنا على ما يقوم به الكفار من أعمال للضغط على المسلمين كي يرتدوا، واعتبر هذه العملية أشد وأخطر من القتل. يعني أن الكفار لا يستطيعون ردكم إلى الكفر، ولكن الغرض الحقيقي من محاربتهم إياكم هو ردكم عن دينكم. وفعلا نرى أن الله تعالى خيّب نوايا الكفار هذه. فلم يتمكنوا من التغلب على المسلمين . وإذا وقع أحد من المسلمين في يد الكفار بذلوا كل جهودهم ليردوه عن دينه. وما حدث مع بلال وأبي جندل وياسر يلقي ضوءا كافيا على هذه الحقيقة (السيرة النبوية لابن هشام). عن هذه الأنشطة الجبرية لإخراج المسلمين عن دينهم قال الله تعالى (والفتنة أكبر من القتل).. أي أن إيذاء أحد بسبب دينه أخطر وأشد إثما عند الله من القتل والحرب.

ثم يقول (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة). يعترض البعض على جملة (حبطت أعمالهم) هنا قائلا: ما دام قد قام بعمل فكيف يضيع عمله؟(تفسير الرازي).

الحقيقة أنهم أثاروا هذا الاعتراض لأنهم لم يدركوا معنى (حبطت). وهناك آية أخرى توضح معنى (حبطت) وهي (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا، إليه يصعد الكلم الطيب،والعملُ الصالح يرفعه) (فاطر: ١١).. أي أن من طلب العزة فعليه أن يطيع الله ويصلح عمله، لأن كل أنواع العزة عند الله تعالى، فإليه تصعد الأرواح الطاهرة، ويرفعها إليه العمل الذي يتم بحسب الإيمان. تبين من هذه الآية أن ضياع الأعمال يعني أنها لا تحظى بقبول من الله تعالى، ولا تقرِّب الإنسان إليه.. فـــ(حبطت أعمالهم) تعني أنهم لم يقوموا بهذه الأعمال لوجه الله، لذلك لن تحظى بالقبول لديه، ولن تصعد أرواحهم إلى السماء.

كذلك تعني أنه لو وفِّق أحد للقيام بخدمات عظيمة للإسلام بعد الإيمان ، ولكنه مات على الكفر فإن خدماته هذه تضيع، لأنه أثبت بكفره أن خدماته كانت باطلة، فلن تنفعه أعماله هذه في الآخرة لأن عاقبته كانت سيئة.

(وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).. أولئك الذين سوف يُلقون في جهنم، لأنهم أوقدوا في الدنيا نارا للفتنة والفساد بارتدادهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢١٩)

التفسير: في الآية السابقة ذكر الله الذين يموتون وهم في حال الارتداد، وبيّن أنهم لن يفلحوا في مساعيهم لمحو الإسلام. والآن ذكر أولئك الذين وُفقوا للتوبة بعد الارتداد وعادوا للإسلام مرة أخرى. ولما كانت وصمة الارتداد قبيحة للغاية، لذلك لم يشترط الحق تبارك وتعالى للتوبة الإيمان وحده، بل قال: إنما نقبل التوبة فقط ممن يؤمن من جديد ثم يهاجر.. أي يترك العادات القبيحة من الجبن وإخفاء الإيمان، أو يترك الأماكن التي يُمارَس فيها الجبر في الدين، ثم يصبح في سبيل الله سيفا مسلولا، ويقوم بالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس. فإذا فعل ذلك وجد الله غفورا رحيما.

يذكر التاريخ أنه بعد وفاة سيدنا أبي بكر جاء سيدنا عمر-رضي الله عنهما – للحج في مكة، وبعد أداء فريضة الحج جلس يستقبل الناس. وكان منهم جماعة من الشباب من أبناء أسياد مكة وكبراء قريش، فرحب بهم أمير المؤمنين بالتوقير والاحترام، وتحدث معهم في شتى الأمور.. حتى دخل عبد من أصحاب النبي ﷺ، وكان آباء هؤلاء الشباب في بداية الإسلام يضربونه بنعالهم ويجرونه في الطرقات لإسلامه حتى يدمونه. فعندما دخل هذا الصحابي قال عمر للشباب: تنحوا قليلا، وأفسحوا المكان لهذا فهو صحابي للرسول ﷺ. فتأخروا واقترب الصحابي من عمر

وأخذ يتحدث معه، وجاء صحابي آخر، فأمر سيدنا عمر أن يتنحوا ويفسحوا له فهو من أصحاب النبي ﷺ. وتكرر هذا الأمر إلى أن اضطر هؤلاء الشباب للجلوس في مكان النعال. فقاموا وخرجوا من المجلس وقد اغرورقت عيونهم بالدموع.

قال بعضهم لبعض: هل يمكن أن نتصور رؤية يوم نهان فيه هكذا؟ لقد قُدِّم علينا الذين كانوا يفتخرون بحمل نعالنا، وأجلسوا أمامنا. ودفعوا بنا إلى الخلف حتى جلسنا في مكان النعال، كأنما عزّ الأذلاء وذل الأعزاء. خرجت هذه الكلمات من أفواههم رغم كونهم مؤمنين.. بسبب الغضب وحماس الشباب. ولكن شابا منهم، كان أقواهم إيمانا، فقال: أيها الإخوة، صدقتم، ولكن من هو المسؤول عن ذلك؟ من الذي جعل آباءنا يرفضون محمدا ﷺ ويعارضونه؟ إن آباءنا عادوه، ولذلك رأينا هذا اليوم المشئوم.. إذ اضطررنا للتأخر في المجلس. أما الذين خدموا النبي ﷺ، وضحوا لأجله بأرواحهم وأموالهم.. فقد قتل بعضهم، ولكن الباقين منهم لهم كل الحق في التكريم والتبجيل والجلوس في المقدمة قبلنا. قالوا: صدقت، ولكن هل هناك سبيل لمحو هذه الوصمة من الذلة والعار؟ هل هناك تضحية تكون كفارة لذنوبنا؟ فقال الشاب: تعالوا نذهب إلى أمير المؤمنين عمر ونسأله العلاج لذلك.

فذهبوا إلى بيت عمر وطرقوا الباب، وكان المجلس قد انتهى، فدعاهم عمر وقال: ما وراءكم؟ قالوا: ألم تر كيف عوملنا اليوم؟ قال عمر: كنت معذورا، لأن هؤلاء الذين جاءوني عندئذ كانوا من أصحاب النبي ﷺ، وكان من واجبي أن أعزهم وأكرمهم. قالوا: نحن ندرك ذلك جيدا، ونعرف أن آباءنا قد جلبوا على أنفسهم ذلة وعارا بمخالفتهم النبي ﷺ، ولكن هل من سبيل لمحو هذه الوصمة من جباهنا؟ ولما كان سيدنا عمر من أسرة شهيرة بمعرفة أنساب العرب، ويعرف ما كان يتمتع به آباء هؤلاء الشباب من عز وجاه دنيوي، حتى أن هؤلاء الكبار لو أعطوا الأمان لأحد المسلمين في زمن ضعف الإسلام لم يجرؤ أحد على إيذاء هذا المسلم. جرى مسلسل هذه الأحداث أمام سيدنا عمر حلقة حلقة، وأخذته الرقة بتذكرها، ولم يستطع الكلام، فأشار بيده إلى الشمال حيث كانت الحرب دائرة بين المسلمين

والمسيحيين في الشام ليقول لهم: إن علاجكم هناك. فهذه الوصمة لن تزول إلا إذا ذهبتم إلى هناك واشتركتم في القتال، وضحيتم بأنفسكم.. وعندئذ سوف ينسى الناس تلقائيا تلك الأمور المؤلمة. فخرجوا من فورهم، وركبوا الإبل إلى الشام. وكان عددهم سبعة، واشتركوا في الجهاد للتخلص من وصمة العار القديمة. ويذكر التاريخ أنه لم يرجع أحد منهم إلى مكة وإنما استشهدوا جميعا في هذه الحرب (سيرة عمر للجوزي، باب٣٨).

فكما نال هؤلاء الشباب رضوان الله بالتضحية بنفوسهم.. كذلك إنما تُقبل التوبة حقا بعد الارتداد ممن يعلن الإيمان بلسانه ثم يقوم بالهجرة.. ظاهرة أو معنوية، ثم يجاهد الكفار في سبيل الله. هذه هي الوسائل التي تجعله موردا لرحمة الله تعالى.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢٢٠)

شرح الكلمات:

الخمر:– اسم كل مسكر خامَرَ العقل (الأقرب).

الميسر– اللعب بالقِداح أو النِّرد أو كل قمار؛ الجزور التي كانوا يتقامرون عليها (الأقرب).

الإثم– الأفعال المبطئة عن الخير؛ العقوبة والأذى، من قبيل إطلاق اسم الشيء على نتيجته.. لأن القاعدة أنهم يأتون بالسبب بدل المسبب أحيانا. وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون. ومن يفعل ذلك يلق أثاما) (الفرقان:٦٩)، فـــ(أثاما)هنا بمعنى العقوبة.

العفو–خيار الشيء وأجوده؛ ما يفضل عن النفقة ولا عسر على صاحبه في إعطائه؛ المال الذي يُعطى بدون سؤال. يقال: أعطيته عفوا، أو أعطيته عفو المال.. أي بغير مسألة (الأقرب).

التفسير: يقول الله: يسألك الناس هل شرب الخمر ولعب القمار جائز أم لا؟ فقل لهم: للخمر والميسر بعض الفوائد، وكذلك فيهما الأضرار، ولكن أضرارهما أكثر من منافعهما.

ما ألطف هذا الجواب من الله تعالى، لم يصُدَّهم فور السؤال، و لم يقل: لا تشربوا الخمر ولا تلعبوا القمار، بل قال: فيهما النفع، ولكن نفعهما أقل من ضررهما، وعليكم أن تفكروا الآن: ماذا تختارون؟

وفي هذا الجواب مبدأ هام، وهو أنكم إذا رأيتم الشيء منافعه أكثر من أضراره فاستعملوه، أما إذا وجدتم أضراره أكثر من منافعه فلا تختاروه، خاصة العمل الذي فيه إثم كبير. والإثم هو الذنب، ويعني أيضا الحرمان من الحسنات. وكأن الله قال: لا تفعلوا عملا تكونون به آثمين أو يحرمكم من الحسنات. وإن كان به في الظاهر بعض المنافع.

ثم علَّمنا الإسلام بقوله (منافع للناس) أنه مهما كان الشيء معيبا وفاسدا في ظاهره إلا أنه من واجبكم ألا ترفضوا وجود بعض المزايا والمنافع فيه. فما دامت للأشياء مثل الخمر والميسر أيضا بعض الفوائد.. فكيف يمكن أن تعتبروا الأشياء الأخرى التي تبدو ضارة في الظاهر خالية من بعض المنافع تماما؟ لا شك أن من واجبكم أن تجنِّبوا أنفسكم وأجيالكم أضراره، ولكن لا تكونوا ضعفاء البصيرة، فلا تروا في الشيء إلا جانبه المظلم فقط. بل عليكم أن تروا الجانبين، المظلم والمضيء، ولا تبخلوا بالاعتراف بالحسن والجمال في الشيء.

وقوله (يسألونك عن الخمر والميسر) يبيّن أيضا أن المسلمين كانوا يأتون النبي ﷺ ويسألونه في هذا الصدد، مع أن العرب كانوا معتادين على شرب الخمر حتى أنهم كانوا يتفاخرون بذلك. يقول أحد شعرائهم:

ألا هُبِّي بِصَحْنِك فاصْبحينا ولا تُبقي خمورَ الأنْدَرينا

أي انهضي أيتها الحبيبة واسقينا خمر الصباح بكأسك الكبيرة، واسقينا كثيرا، ولا تدخري الخمر الجيدة التي من بلاد الأندرين في الشام (معلقة عمرو بن كلثوم).

كذلك كانوا يشربون الخمر في أيام الحرب بصفة خاصة حتى يقاتلوا بدون مبالاة بالعواقب، ولا يفكروا في مصيرهم. وعلى الرغم من العيش في مثل هذه البيئة.. فإن الصحابة كانوا يأتون النبي ويقولون: يا رسول الله، ما حكم الخمر والميسر عند الله تعالى. وهذا يدل على أن الخمر والميسر لم يكونا قد حرما إلى ذلك الوقت، إلا أنهم كانوا بفضل صحبتهم للنبي ﷺ يشعرون أن هذه الأشياء تحول دون القرب من الله؛ ويجب أن يترل الحكم في هذا الصدد واضحا من عند الله تعالى. فهذا السؤال في حد ذاته يشكل دليلا عظيما على ما كان يتمتع به صحابة النبي من طهارة القلب وسمو الأخلاق وحسن السيرة.

لقد بُذلت جهود جبارة لصرف الناس عن تعاطي الخمر ولعب الميسر، ولكن لم يفلح في منعهم منهما دين سوى الإسلام. وقد حقق في هذا نجاحا باهرا. وقبل إبراز محاسن التعليم الإسلامي وحقيقته في صدد الخمر نذكر هنا ما ذكرته الأديان الأخرى.

ونبدأ بدين يدَّعي أنه أقدم الأديان.. دين الفيدا الهندوسي. لا حاجة لنا بالبحث الكثير لأن هذا الدين يتأسس على ما جاء في كتب الفيدا، وقد ألقت على الموضوع ضوءا كافيا. وبإلقاء نظرة عابرة على كتب الفيدا الأربعة، وخاصة (رج فيد) وهو أهمها.. نجد أن الخمر مسموح بها.. بل من الضروري استخدامها في بعض المناسبات لكسب الثواب. وكان الصلحاء عند الهندوس يعتبرون الخمر شيئا

مقدسا وطاهرا. وما ورد في الفيدا من فقرات يصور لنا مشهدا كاملا للمساعي الجادة التي يبذلها العابد الهندوسي لاجتذاب نظر الإله بتقديم الخمر إليه. ولو تدبرنا لوجدنا أن الخمر كانت تلعب الدور الأكبر في عبادة المتعبد الهندوسي القديم. كان لا يشرب عصير (سوم) فحسب، بل كان يغسل به الأشياء الأخرى في عبادته، وكان يقدم هذا العصير لـــ (إنْدر) وغيره من الآلهة الهندوسية لاجتذاب أنظارهم إليه.

وكذلك يتبين من الاقتباسات التي عُلموها في (أثر فيد) لعبادة الآلهة (أشوني كمار) أن العابد الهندوسي في قديم الزمان كان يرى عصير سوم مباركا لدرجة أنه كان لا يشربه فحسب، بل كان يلتمس من آلهته شُربها. فقد ورد: يا أيتها الآلهة (أشوني كمار) الشراب الذي يكون في الجبال والغابات والحشائش البرية، والذي يُعصر في مناسبة (يَكْيَه)، يجب أن يكون عصيره لي ولكم (باب٩ فصل ١، الجملة ١٧).. هنا التمسوا من إلههم أن يشرب الخمر، ولكنهم عندما كانوا يعبدون الإله البلوري كانوا يفعلون أكثر من ذلك، إذ كانوا يغسلونه بهذا الخمر؛ وكأنهم يسقونه الخمر،كما كانوا يتوسلون إليه قائلين: يا أيها الإله المصنوع من البلور، نتوسل إليك أن تقيم في بيتنا ضيفا. سوف نقدم لك هكذا الزبد والخمر والعسل والأطعمة الحلوة. ففكّر دائما فيما هو خير لنا كما يفكر الأب في مصلحة أولاده (أثر فيد، باب١٠، فصل ٦، سطر٢٦).

تلقي هذه الكلمات الضوء على أن العابد الهندوسي في قديم الزمن كان يلتمس من إلهه شرب الخمر، كما كان يشربها، ويغطس فيها الإله المصنوع من البلور.

ولكن في نفس المرجع مزيد من التوضيح من أن هذه الآلهة كانت تشرب الخمر فرحا بنجاحها: إن الإله (إندر) شرب كؤوس الخمر ليستولي على أعدائه وينتصر عليهم(فصل١٠، سطر ١٠).

وفي هذه الأيام يحاول أتباع الآريا، وهي فرقة من الهندوس، أن يؤولوا عصير (سوم)[١٤]. هذا ليبينوا أنه ليس في الفيدا أي ذكر للخمر، وإنما المذكور هو عصير (جلو) ولكن عندما ننظر إلى عمل الأمة الهندوسية كلها، ثم نرى أنه لم يكن لها اتصال كامل لمدة طويلة مع قوم يشربون الخمر مما يُظن به أنهم قد تعودوا شرب الخمر تقليدا لهم، نجد ترددا وتأملا كبيرا في قبول هذه التأويلات من بعض الهندوس. إلا أننا عندما نقرأ ما يلي.. يصبح قبول هذه التأويلات مستحيلا تماما. فقد ورد: هذا (سوم) لذيذ وجيد الطعم جدا، فيه بعض الحلاوة وبعض الحموضة، ولا يستطيع أحد أن يقف في الحرب في وجه الإله (إندر) شاربِ عصيرِ سوم "(نفس المرجع، باب١٨، فصل١، سطر ٤٨).

نتوصل من هذه الفقرات إلى أن الدين الهندوسي يسمح تماما بتعاطي الخمر، بل أنه يرى من الضروري استخدامها في بعض العبادات، وأن الحضارة الهندوسية تصدق ذلك، وتاريخهم شاهد على صحة النتيجة التي توصلنا إليها.

وثاني الأديان القديمة هو دين الفرس المجوس. إن الشعب الفارسي له تاريخ متواصل طويل، بل تدل البحوث الجديدة أنه لا غرابة أن تكون الحضارة الفارسية أقدم من الحضارة الهندوسية. ويتبين من ديانتهم الجديدة والقديمة أن تعاطي الخمر جائز لديهم. ويعرف المطلعون على الديانة الزردشتية أن زردشت لم يكن مؤسس ديانة جديدة، وإنما أحيا الديانة الفارسية القديمة التي تطرق إليها الفساد بمرور الزمن. ولمعرفة فتواهم الدينية عن الشراب لا بد لنا من إلقاء نظرة على فترة ما قبل زردشت وفترة ما بعده. صحيح أن التاريخ يبين أن الفرس كانوا يشربون الخمر بكثرة، ولكن ما هي نظرة دينهم إلى الخمر.. فهذا لا نعرفه إلا من كتب زردشت.

ورد في الكتب الفارسية البهلوية في صدد ولادة زردشت أن ملاكا قدم كأسا من الخمر لوالد زردشت يوروشاسب، وبعد شربه هذا الخمر بفترة قصيرة حملت

[١٤] سوم وجلو نوعان من الأعشاب.

زوجته دوغدو، وولدت طفلا قدِّر له أن يحدث انقلابا عظيما في تاريخ الشرق. وفي سياق ولادة إنسان مقدس كزردشت فإن تقديم الملاك كأسا من الخمر لوالد زردشت لَحادث يدل أن تعاطي الخمر قبل ولادته لم يكن جائزا دينيا فحسب، بل كان مستحسنا.

كما تلعب الخمر دورا في طقس ترديد الأدعية المسمى بأدعية "أفر نجن "وهي الخاصة بعلماء الزردشتيين. فالدستور [كبير علمائهم]يجلس على سجاد مفروش على الأرض عند ترديد هذه الأدعية. وأمامه صحن من معدن أو ورقة من شجرة.. يوضع عليها الفواكه الجيدة والأزهار الموجودة في ذلك الموسم، إلى جانب الحليب الطازج والخمر والماء والمشروبات الأخرى في بعض الأواني.

فتعاطي الخمر في الديانة الفارسية عمل مستحسن ومستحب. فكانوا يرون من الضروري استخدام الخمر في بعض الطقوس الدينية، أو على الأقل وضعها بجانبهم.

وثالثة الديانات القديمة هي اليهودية التي تدعي كالزردشتية والهندوسية أن بدايتها كانت منذ بداية الكون. إن هذا الدين.. وإن كان مؤسسة سيدنا موسى.. إلا أنه يربط نفسه عن طريق سلسلة من التاريخ مع أبي البشر سيدنا آدم-عليهما السلام. وبدراسة كتب تاريخ هذا الدين أيضا يتبين أن استخدام الخمر جار منذ بداية الكون. فلم يكن استخدام الخمر أمرا منكرا في حين من الأحيان، بل كان أنبياؤهم يتعاطونها. وقد ورد في التوراة: "وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما، وشرب من الخمر وتعرى داخل خبائه.. وستر عورة أبيهما "(تكوين٩: ٢٠). هذا ما ورد عن نوح وهو النبي الأول الذي تاريخه محفوظ لحد ما والذي يأخذ التاريخ بعده مزيدا من التفصيل.

وبعد نوح يأتي دور إبراهيم، ونقرأ عنه في التوراة أن الملك صادق ملِك شاليم قدّم لإبراهيم في الوليمة خبزا وخمرا (تكوين ١٤: ١٨).

كذلك ورد عن سيدنا لوط أن بناته سقينه خمرا (تكوين٩:٣٣).. مما يبين أن الخمر لم يكن إلى زمنه ممنوعا، بل كان أيضا يعتبر من أساسيات الحياة، ذلك لأن هذا الحادث كان بعد واقعة العذاب السماوي.. عندما خرج لوط مع بنتيه إلى الغابة ولجئوا إلى مغارة. فوجود الخمر معهم هناك يدل –كما تحكي التوراة –على ضرورة أن يأخذوا معهم الخمر بحسب متطلبات حياتهم مع ما أخذوا من أشياء أخرى عند خروجهم من قريتهم التي دمِّرت.

وقد لعبت الخمر دورا كبيرا في انتقال النبوة داخل بني إسرائيل، فكما تقول التوراة.. في البداية كان الميراث يؤول إلى الابن الأكبر، ومن نسله تعرف شجرة النسب. وطبقا لهذه العادة أراد إسحاق أن يبارك ابنه الأكبر عيسو، ولكن زوج إسحاق صنعت الطعام اللذيذ وأرسلته مع ابنها يعقوب، فأطعم أباه وسقاه الخمر متظاهرا أنه عيسو، وهكذا دعا له إسحاق وباركه، ومن ثم انتقلت النبوة من أسرة عيسو إلى أسرة يعقوب [وهو إسرائيل]. ومن هنا فإن بني إسرائيل مدينون إلى حد كبير للخمر فيما يتعلق برقيهم الروحاني (تكوين ٢٥:٢٧).

فكما تروي التوراة أن إسحاق شرب الخمر، ثم دعا لابنه يعقوب –ظنا منه أنه عيسو–بالبركة في غلاله وخمره (تكوين ٢٨:٢٧).

وهكذا فرض إسحاق على بني إسرائيل تعاطي الخمر للأبد، لأنهم لو تركوا شرب الخمر لبطل دعاء إسحاق هذا.

ولقد ساند يعقوب دعاء أبيه عند وفاته إذ دعا وأخبر عن ابنه يهوذا وأولاده أن عيونهم ستبقى محمرَّة بشرب الخمر (تكوين١٢:٤٩).

وبعد ذلك فإن زمن موسى هو أكبر وأهم عهد في تاريخ بني إسرائيل، فهو مؤسس الديانة اليهودية والناسخ للشريعة السابقة له. لقد قام بإلغاء الكثير من القوانين والعادات التي كانت موجودة من قبل في بني إسرائيل، إلا أنه لم يبدل الحكم الخاص بالخمر، بل اعتبر الخمر من القرابين التي تقدم لوجه الله، وبذلك اعتبرها

شيئا مقدسا. ويبدو من التوراة أن الله تعالى قد وعد هارون وأولاده –الذين كان فيهم منصب الكهانة– بأحسن خمر، وفرض على بني إسرائيل أن يقدموا للمعبد باسم الرب أفضل ما عندهم من الخمور ليستخدمها الكهنة (عدد١٨:١٢).

هذه الوعود وإن كانت خاصة لبني هارون والمعابد، ولكن سائر بني إسرائيل لم يحرموا منها، بل إن الله وعد موسى أنهم إذا عملوا بحسب أمره واتبعوا شرعه سيكافئهم بما يلي (يحبك ويباركك ويكثرك ويبارك ثمرة بطنك وثمرة أرضك قمحك وخمرك وزيتك ونتاج بقرك وإناث غنمك على الأرض) (تثنية٧:١٣).

ووُعد بنو إسرائيل في أماكن أخرى من التوراة أيضا بكثرة الخمر. وعموما نجد ذكر الخمر في تاريخ جميع الأنبياء والحكام الإسرائيليين حتى زمن المسيح عليه السلام، فقد كثُر استخدامه في تاريخ كل هؤلاء.

وبعد موسى إلى زمن نبينا محمد ﷺ لم تأت شخصية عظيمة أحدثت انقلابا عظيما في عالم الأديان إلا سيدنا عيسى عليهم السلام. ففي زمننا هذا يتمتع أتباعه بمكانة وعزة دنيوية على وجه الخصوص. ويظهرون تعليمه للناس كأنه تعليم كامل مكتمل. ولكن الفتوى التي أصدرها المسيح في الإنجيل عن الخمر كانت عن تقديسها. فالثابت من الإنجيل ن المسيح لم يكن يستقبح الخمر، بل كان يتعاطاها، بل يصنعها ويسقيها الناس كمعجزة. أما تعاطيه الخمر بنفسه فثابت مما يلي: (وأَخَذَ الكأس وشكر، وأعطاهم قائلا: اشربوا منه كلكم... وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا في ملكوت أبي) (متى: ٢٦–٢٧).

أما صنعه الخمر وتقديمها للناس فثابت هكذا: (وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أم يسوع هناك. ودعي أيضا يسوع وتلاميذه إلى العرس. ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له: ليس لهم خمر... قال لهم يسوع: املئوا الأجران ماءً، فملئوها إلى فوق، ثم قال لهم: استقوا الآن وقدِّموا إلى رئيس المتّكأ، فقدَّموا. فلما

ذاق رئيس المتّكأ الماء المتحول خمرا —و لم يكن يعلم من أين هي– لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا، دعا رئيسُ المتكأ العريسَ وقال له: كل إنسان إنما يصنع الخمر الجيدة أولا، ومتى سكروا فحينئذ الدُّون، أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن. هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده، فآمن به تلاميذه) (يوحنا ٢: ١-١٠)

كل هذا يدل على أنه حتى زمن بعث سيدنا محمد ﷺ كانت الديانات تبيح شرب الخمر؛ بل فرضت تناولها في بعض الطقوس الدينية، واعتبرتها مباركة ومفيدة. وبُعث نبينا محمد ﷺ وهذه الديانات موجودة على الأرض، ولكنه علَّم أتباعه أمرا إلهيا مخالفا لتعليم تلك الأديان، وقال: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا). وفي موضع آخر من القرآن الكريم هناك نَهْي قطعي عن الخمر بكلمات أشد: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالأَزلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(*)إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ(*)وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) (المائدة: ٩١-٩٣). سبق أن ذكرتُ أن الإسلام قد نهى عن شرب الخمر في وقت لم تكن تُستقبح في أي من الديانات السابقة. بل كانت عموما تحبذ استخدامها، وكانت طقوس بعضها توجب استخدامها. ونَهْيُ الإسلام عن تعاطي الخمر في مثل هذه الأحوال لم يكن حدثًا هيّنا. و لم يكن العالم جاهزا بعدُ لفهم ما في هذا النهي من مصالح وفوائد. بل إن الطب في ذلك العصر كان يعتبر الخمر غذاء مقويا جدا ونافعا للصحة. ورغم كل هذا نهى الإسلام عن تعاطي الخمر نهيا قاطعا. و لم ينه اعتباطا بدون مبرر، وإنما قدم الأدلة على مضارها. و لم يكن في أدلته متعصبا، وإنما ذكر ما في الخمر من بعض المزايا. من الممكن أن يكون بعض الفلاسفة قد كرهوا استخدام الخمر في بعض الأحوال، ولكن لم يجد أحدّ حلاً لهذه المسالة العويصة كما حلّها الإسلام.

فمثلا، هناك (الجينية) —علما بأنها ليست دينا في الحقيقة، وإنما هي فلسفة–نجد فيها بعض الآثار للنهي عن شرب الخمر، ولكن على أي أساس؟ لا يقوم هذا النهي على أي دليل من المنطق والعلم، وإنما يقوم على أنه في عملية تجهيز الخمر يموت عدد كبير من الديدان! وما دام إهلاك أي نفسٍ مخالفًا لمبادئ الجينية، لذلك كان أتباعها الكاملون لا يتعاطون الخمر. و لم يكن هذا النهي كليًا، كما لم يكن يتأسس على التدبر في منافع الخمر ومضارها، وما له من تأثير على من يتعاطونها .

فالإسلام وحده يتميز بين الأديان والفلسفات.. في مجال النهي عن تعاطي الخمر، وتقديم الأدلة والحِكم.. في وقت لم يكن الناس قادرين على فهم المصالح والحكم وراء هذا النهي .

فعلى الرغم من أن القرآن قد بيّن بكل صراحة أن مضار الخمر أكثر من منافعها.. إلا أن الأطباء المسلمين لم ينفكّوا يكتبون في مصنفاتهم عن مزايا الخمر ومحاسنها بطريقة يتحير منها الإنسان. وأقتبس هنا عبارة مختصرة من كتاب الموجز، وهو كتاب يُدرّس في بعض المدارس، يتحدث فيه كاتبه المسلم عن الخمر هكذا:

يجب أن تكون المناظر في مجلس الخمر خلابة، فتوضع فيه الزهور والعطور، وتعزف الموسيقى المطربة، وينبغي أن يُستبعد من المكان كل ما يثير الحزن أو الضيق أو الغضب. ويجب مراعاة النظافة فلا تكون هناك رائحة غير مستحبة من العرق أو اللباس الوسخ البالي. ويجب شرب الخمر بعد الاستحمام وارتداء الملابس الجيدة، وترجيل الشعر وتقليم الأظافر. ويكون المكان فسيحا غير مغلق على شاطئ نهر جارٍ، في صحبة أصدقاء يحكون الطرائف، لأن الخمر تحرك القوى النفسانية وتستثير الشهوات، وعندما لا تجد هذه القوى ما تريده تتألم النفس وتنقبض ولا تميل إلى تعاطي الخمر بشهية وشوق، ولا ينتفع شاربها كما ينبغي، وإنما تضره في بعض الأحيان.

هذا الرأي عن الخمر أبداه كاتب مسلم مصري في القرن السابع الهجري، ومن ذلك يمكن أن يعرف المرء أن المسلمين–رغم ما حققه العلم من تقدم في سبعة قرون– كانوا عاجزين عن إدراك ما في الخمر من مضار، وكتبوا متأثرين بما تم تحت

ذلك الوقت من بحوث أن نفع الخمر أكثر من ضررها، مع أن القرآن قد صرح تماما أن ضررها أكثر من نفعها. فالتعليم الذي قدّمه القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنا عن الخمر، وبالطريقة التي قدمها، خلافا لما كان الحال عليه في الأديان الأخرى.. لم يكن العقل الإنساني بقادر على استيعابه، حتى أن الأطباء المسلمين لم يستطيعوا –رغم هذا البيان القرآني الصريح– إثبات مضارها بطريقة علمية، واضطروا للقول بأن للخمر منافع كثيرة. ومضت الأيام والقرون ولكن البحوث عن الخمر منذ آلاف السنين بقيت كما هي، وكل من جاء أكّد هذه البحوث السابقة. ولو كان لِعِلْمٍ أن يكذِب كلام الله تعالى فيمكن القول بأنه علم الطب؛ إذ لم يزل يُكذِّب عبر القرون هذا البيان القرآني وبكل جرأة!

ومع أنهم عند انتهاء عصر الطب اليوناني وظهور الطب الحديث.. ألقوا آلاف البحوث باعتبارها من سقط المتاع، ولكن فيما يتعلق بالخمر فقد ظلوا يؤكدون أكثر على محاسنها. فإذا كان الطب القديم اعتبر الخمر مفيدة للمحافظة على صحة الإنسان ولتقويته من ضعف، فإن الطب الجديد وصف البراندي (نوع من الخمر) علاجا وحيدا لأمراض خطيرة، وأكدوا على منافعه حتى أنهم لم يعتبروا المستشفى كاملة التجهيز ما لم يكن بها قوارير البراندي. واعتبروا الخمر بمثابة ماء الحياة. وقال البعض علنًا إنه ما لم يُحِلَّ الإسلامُ الخمر فلا يمكن أن يميل العالم إلى الإسلام.

ورغم هذه البحوث وهذه الشهادات الطبية.. فإن الحكم القرآني كان يتلألأ بحروف مضيئة قائلا: إن مضارّ الخمر أكثر من منافعه. ورغم الأحوال غير الملائمة لم يستطع أحد أن يغير هذا القرار، لأن القرآن الكريم كلام الله وشرعه الأخير الذي لا شرع بعده.

ومن الحقائق التي لا يحوم حولها شك أن الخمر لا تضر بالجسم فقط، بل لها تأثير شديد جدا على أخلاق الإنسان أيضا كما أشار الله تعالى إلى ذلك في سورة المائدة بقوله تعالى (إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ) (الآية ٩٢)، ولكن قليل هم الذين يستعدون ليولوا اهتماما لما لهذه الأطعمة والأشربة من تأثير ضار على الأخلاق. ومن أكبر البلايا في هذا الزمن أن

الأمة الإسلامية التي تتجنب تعاطي الخمر هي أيضا قد تدنَّت في أخلاقها كثيرا بسبب ما تطرّق إلى المدنيّة من فساد وزوال وانحطاط؛ فكيف يمكن بعد ذلك أن نقارن بين أخلاقهم وأخلاق الأمم الأخرى؟ لا يمكن توضيح القضية من خلال تقديم بضعة أمثلة من الأفراد، بل تحسم القضايا المتعلقة بالأمم بتقديم أمثلة من الأمم وليس أمثلة من أفراد. وتقديم هذه الأمثلة أصبح محالا؛ فلم يكن هناك سبيل إلا حلّ هذه المسألة على ضوء علم الطب حتى تُحسم نهائيًّا.

إن القرآن الكريم كلام الله تعالى، وكل المعاني المودعة في أي لفظ منه يُظهر الله بنفسه صدْقَها، ويجلّيها بآيات قوية. لقد أظهر الله صدق بعض هذه المعاني منذ البداية وعلى مرّ الأيام، ليكون ذلك حجة على الناس في كل زمن. ولكن الله تعالى يظهر صدق بعض هذه المعاني بالتدريج في مختلف الأزمان والعصور، ليعرفوا أن القرآن الكريم كلام الله، ولا دخل لأي إنسان في تأليفه. لأن فيه أمورا لم تصل إليها العلوم في ذلك العصر. وكل من هذين الأمرين قد تمت مراعاته في النهي عن شرب الخمر. فمضارها الأخلاقية يمكن إثباتها في أي زمن، اهتم بها الناس أم لم يهتموا، وإن كان إثباتها في بعض الأزمان أصعب منه في زمن آخر. أما عن مضارها الجثمانية فالخمر شراب، والتأثير الأول للمشروبات يكون على الجسم، والإنسان عادة لا يهتم إلا بمعرفة تأثيرها على الجسم.. لذلك لم تكن أهمية ومحاسن هذا النهي القرآني عن الخمر لتنكشف بصورة واضحة ما لم تتبين أضرارها على جسم الإنسان وضوح الشمس في رابعة النهار، وما لم يثبت أن مضارها أكثر من منافعها. فجاء أخيرا وقت انكشاف هذا الحقيقة، فمكّن الله الإنسان من اكتشافات واختراعات استطاع بها أن يعرف ما لأنواع الأغذية والأدوية والفصول والأحاسيس من تأثير على الأعصاب والألياف الرقيقة في الجسم الإنساني. وإلى جانب ما أحدثت هذه المخترعات من انقلاب عظيم في العالم، فإنها أيضا أثبتت خطأ وبطلان البحوث العلمية القديمة عن الخمر، واضطر معظم العلماء إلى الاعتراف بأن ضرر الخمر أكثر من نفعها، ويرجع الفضل في إبطال هذه الأفكار القديمة المستحكمة إلى العالم النفسي (كربلن) بالتعاون مع زملائه المتفقين معه في الرأي. لقد بذلوا جهودا

وأثبتوا أن تناول جرعة ضئيلة من الخمر، ولو مرة واحدة تضر بألياف رقيقة وخلايا حساسة في المخ الإنساني. كذلك قام الأستاذ (هوج) باختبارات تتعلق بتأثير الكحول على عضلات الإنسان، وتوصل بها إلى أن تناول الخمر يضر ضررا بالغا بقوة التحمل والجلد والذكاء. كما أن الدكتور (الكسندر برايس) هو من كبار علماء الأغذية.. قدّم بحوثه في صدد الخمر فقال: لم يبق هناك أدنى شك في أن الخمر في الحقيقة سم قاتل يدمر الألياف. فهو أولا: يبدي تأثيره المسكِر، ثم يحدث ضررا بالغا بالأعصاب. والحق أن الخمر غير جديرة أبدا أن تُدرج ضمن الأدوية المقوية، لأنها في البداية تثير القوى إثارة وقتية، ثم يظل الإنسان لمدة طويلة مصابا بالضعف. لقد أجمع تقريبا كل الأطباء الأذكياء الآن على أنه في أيام الصحة لا حاجة إطلاقا لشرب الخمر، أما فيما يتعلق بعلاج الأمراض، فلو لم نعتبر نفعها مشكوكا فيه، إلا أنه أصبح من المتحقق أن من الأفضل استخدام أدوية أخرى هي أقل منها ضررا.

وكان لا بد لهذه الاكتشافات أن تترك أثرا قويا في علوم الطب. وبالفعل حدث ذلك، ومنذ سنة ١٩٠٠ لم يزل مهرة الأطباء يميلون إلى التقليل من استخدام الخمر في العلاج. ففي مستشفي بـــ (أيدنبرج) كان معدل ما أنفقوا على الخمر لمريض واحد ٩ روبيات في سنة ١٨٩١، أما في سنة ١٩٠٠ فقد انخفض هذا المعدل ¾ روبية فقط .

واجتذب نجاح هذه التجربة أنظارهم أكثر، ففي سنة ١٩٠٩ قرر سير توماس – أحد كبار الأطباء- ألا يعطي مرضاه حتى جرعة واحدة من الخمر. وفي هذه الأيام تكثر مثل هذه التجارب في العديد من المشافي، فلا تستخدم الخمر إلا مع قلة من المرضى المصابين بالالتهاب الرئوي والخنّاق (الدفتيريا) والحمّى، ويرون استخدام الخمر ضارا بالأصحاء .

إذن فبعد مرور ثلاثة عشر قرنا انكشف اليوم للعالم صدق القرار القرآني الذي أعلن أن أضرار الخمر أكثر من نفعها، وقد تحقق هذا وثبت علميا. والذين يتمتعون بعادة قبول كل ما هو خير وحسن ولا يكترثون بما في مجتمعهم من تقاليد وعادات

وأفكار ومبادئ.. شرعوا الآن يهتمون بإصلاح أخطائهم، والله تعالى أعلم إذا كانوا سيفلحون في مساعيهم هذه أم أن أصحاب العادات والتقاليد والأفكار الدينية القديمة هم الذين سيتغلبون. إلا أنه قد أصبح من الواضح البيّن أن هذه المساعي والبحوث العلمية الجديدة تشكّل دليلا قاطعا على أن تعاليم القرآن الكريم تتفوق تفوقا عظيما على تعليم الديانات الأخرى كلها.. حتى أن العالم قد احتاج إلى البحث لمدة أربعة عشر قرنا ليعرف حقيقة بعض الأحكام الإسلامية والتي عارض فيها الأديان كلها، وبعد هذا البحث الطويل والمضني، وبعد كل هذه المتاعب توصل العالم إلى أن ما يقوله الإسلام هو الصحيح .

وأود الآن بيان أن الإسلام لا يتفوق على جميع الأديان والحركات المهتمة بأخلاق الناس من حيث تعليمه في صدد الخمر فحسب.. بل يتفوق عليها من حيث تأثير تعليمه في أتباعه في هذا الشأن. فمن درس أحوال مدمني الخمر دراسة فاحصة، أو تعامل معهم، يدرك جيدا أن مدمن الخمر يتعذر عليه التخلي عن هذه العادة. فمن خصائص الخمر التي تميزها عن المسكرات الأخرى أن مدمنيها إدمانًا شديدا يولعون بها وَلَعًا جنونيا ينتقل بالوراثة إلى أولادهم، ولا يجدون راحة ما لم يكونوا في ثمالة وسكر، ولا يرتدعون عن ارتكاب أشنع الجرائم للحصول على الخمر، فكفُّ الإسلامِ أتباعَه عن تعاطي الخمر ليس بأمر هيّن .

لقد بيّنت من قبل أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي نهى أتباعه عن الخمر وتعاطيها نهيا رائعا مصحوبا بالدليل والحكمة، أما الأديان الأخرى فهي لا تنهى أتباعها عن الخمر، بل إن بعضها قد أدخل الخمر في طقوسها الدينية. إنني أرى من الضروري بيان أنه على الرغم من ترخيص وأمر بعض هذه الأديان بتعاطي الخمر.. إلا أن زعماءها وقاداتها لما رأوا أضرار الخمر أدركوا أن الناس لو استمروا في شربها هكذا فإن الشعوب سوف تنهار صحيا وخلقيا. فنجد في التاريخ، منذ بداية العالم، رجالا دعوا الناس إلى التقليل من استخدام الخمر والاعتدال في تعاطيها في كل حال. إن تاريخ البلاد الشرقية كلها، وهي البلاد التي كانت حاملة لواء الحضارة والمدنية في العصور القديمة، شاهد على أنه منذ أقدم العصور لم ينفك علماء الدين والفلاسفة

والمشرعون في الهند وإيران والصين والشام ومصر واليونان وقرطاجة يبذلون جهودهم لإبعاد الناس عن السكر. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ كل ما حصل أن امتنع بعض الناس عن تعاطي الخمر لفترة، ثم اندفع الجميع إلى إنعاش أرواحهم بماء الحياة هذا. خذوا على سبيل المثال أمريكا، كم من جهود بذلتها الحكومة هناك لكفّ الناس عن شرب الخمر! ولكن لما كانت قلوب الناس فارغة من الإيمان، وليس وراء النهي عن الخمر سوى قانون حكومي، لذلك فشلت هذه المحاولات، ومات الآلاف لأنهم ــشفاءً لغليلهم إلى الخمرــكانوا يشربون الكحول الذي يحتوي على مزيج من السموم. فهلك كثير من المتعاطين وأصيب كثير بالعمى. وعمل كثير من الأمريكان في تهريب الخمر من الخارج. وسنّت الحكومة قانونا يمنع الحصول على الخمر إلا بتصريح من طبيب، فعمد كثير من الأطباء إلى تقاضي المال نظير إعطاء شهادات طبية تصرح لحامليها بالحصول على الخمر، للعلاج، وكان آلاف الأطباء يعيشون على إصدار هذه الشهادات، وجنوا منها ثروات كبيرة.

وإذن لم تؤدّ جهود أحد من هؤلاء الفلاسفة والمفكرين والواعظين والمشرعين في أي بلد إلى التزام الناس بالتقليل من تعاطي الخمور وفاء لهذه الأفكار المضادة للخمر. فلو أن جماعة قللت من تعاطي الخمر فإن غيرها سدّت هذا الفراغ وأكثرت من تعاطيها، وبقيت الخمر على مكانتها في المجتمع لا يزعزعها أحد.

الآن تعالوا نقارن هذا بما كان يتمتع به الإسلام من تأثير ونفوذ على أتباعه فيما يتعلق بالقضاء على تعاطي الخمر. لقد ظهر الإسلام في وقت لم يكن في الدنيا رواج كبير للعلوم. كانت العلوم اليونانية بعد بلوغها الذروة قد توارت في زاوية الخمول نتيجة لمساعي القسس المسيحيين، ولم يكن يعرفها إلا قلة من الناس. وكانت آسيا الصغرى خاصة، التي كان لها سهم كبير في ترقية هذه العلوم تغطيها ظلمات الجهل. أما الفلسفة الهندية فكانت في طريقها إلى الزوال. أما فارس فكانت تنحط أخلاقيا وعلميا. وأما العرب فكانت حالهم سيئة ومؤسفة للغاية. و كانت القراءة والكتابة هي أكبر علم عند عرب الحجاز، وكان

الواقفون على هذا الفن منهم قلّة. أما علم الأخلاق لديهم فكان يتمثل فيما نظمه الشعراء في قصائدهم، وكان كل ما عندهم من علم الطب هو ما كانت تحكيه العجائز من وصفات طبية عائلية على مر العصور. وعلم الأخلاق الذي ذكره الشعراء يقول إن الخمر تحسن أخلاق الإنسان وتجعله شجاعا وجوادا. وكان العرب يهتمون بهذين الخلقين.. الشجاعة والكرم، ويرون أن علم الأخلاق يرتكز على هاتين الصفتين. وكان علم الطب عندهم يحثهم على أن كأسا من الخمر علاج لكل داء.

فلم تكن العرب، بناء على علومهم، كارهين للخمر، بل كانوا مولعين بها. وكان كل عربي مدمنا للخمر، بحيث كان شرب الخمر هو شغلهم الشاغل في حياتهم اليومية، اقرءوا شعر العرب، قلّما تخلو قصيدة من ذكر الخمر وشربها ومجالسها. قال طرفة بن العبد، وهو من شعراء الطبقة الأولى في جمال لغته وسمو أفكاره بين العرب:

فإن تَبْغِني في حلقة القوم تُلْفِني وإن تَقْتَنِصْني في الحوانيت تَصْطَد

كريم يروّي نفسه في حياتــه ستعلم إن متنا غــدا أيُّنــا الصَّدي

أي إن أردت لقائي فسوف تجدني في مجلس الشورى للقوم-رغم صغر سنه، وقد مات في العشرين-وإذا أردت أن تضمن لقائي ففي حوانيت الخمر. أنا كريم شريف أروي نفسي من الخمر في حياتي، وبعد الموت ستعرف من منا العطشان. و لم يكن طرفة يقول أي كلام، بل كان يقول ما يفعل. عندما هجا طرفةُ في بعض قصائده ملكَ العرب عمرو بن هند، غضب عليه الملك وأمر واليه على نجران أن يقتله وهو لا يزال في عنفوان الشباب. فلما أسَرَه طلب منه أن يختار الطريقة التي يموت بها، فاختار أن يوضع معه الكثير من الخمر فيشرب منها، وأثناء ذلك يترفون الدم من أحد عروقه حتى الموت.

ويقول أبو محجن الثقفي يوصي ابنه:

إذا متّ فادْفِنّي إلى أصل كرمة تُرَوِّي عظامي بعد موتي عروقُها

ولا تَدْفِنَنّي في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مِتّ ألاّ أذوقها

.. يريد الشاعر أن يُدفن عند شجرة عنب حتى يرتوي من خمر عصيرها، ويخشى إذا دفن في أرض قفر أن يُحرم من ذوق الخمر (الشعر والشعراء لابن قتيبة).

وعلاوة على كلام شعراء العرب فإننا نجد في لغتهم ما يدل على ولعهم الشديد بالخمر. ففي اللغة العربية يجد الإنسان أسماء كثيرة للخمر بحيث يتحير من كثرتها، ولا تجد نظيرا لذلك في لغة أخرى. والحضارة العربية شاهدة على أن العربي لم يكن خاملا في تعاطي الخمر؛ بل سبق العالم كله في هذا المضمار. جاء في الموسوعة البريطانية: "يبدو أن الناس منذ قديم الزمان يعرفون صناعة الخمر، فكان العرب في زمن الظلام يصنعون الخمر"(تحت كلمة الخمر). وتدل هذه الشهادة التاريخية على أن العرب كانوا سبّاقين للأمم الأخرى فيما يتعلق بصناعة الشراب وتعاطيه. وقد أصبحت الجزيرة العربية سوقا وحيدة في العالم للخمر المعتق شديد التأثير.

في مثل هذه البلاد بُعث سيدنا محمد ﷺ، وهذه هي الأمة التي أراد كفّها عن شرب الخمر. فما هي الأساليب التي اتبعها لتحقيق هدفه؟ وما هي النتيجة؟ هذا حادث تاريخي بهر العقول وأدهش الحكماء العقلاء. إلى هؤلاء القوم الذين كانوا لا يكادون يفيقون من سكرة الخمر، ويروها الوسيلة الوحيدة لتسليتهم.. إلى هؤلاء القوم خرج النبي ﷺ في يوم من الأيام يبلغهم رسالة الله بكلمات وجيزة، ولكنها واضحة بيّنة، فقال: ما دامت مضار الخمر أكثر من منافعها لذلك حرّمها الله عليكم من الآن، وعلى كل مسلم أن يجتنبها، فيمتنع عن صنعها وبيعها وشرائها وشرابها وسقيها. وبسماع هذا الأمر، خضعت رؤوس هؤلاء المولعين بالخمر طاعة، ولم يخرج من فم أحد منهم كلمة احتجاج، وإنما

تقبَّل الأمر في انشراح صدر، و لم يقرب بعد ذلك كأس الخمر من شفته! إنهم لم يطالبوا بمهلة طويلة أو قصيرة، و لم يسألوا عن شرب قليل أو كثير.. لأن الرسول ﷺ قد سبق وقال لهم أن ما يحرُم كثيره يحرُم قليله أيضا. فلا يحتاج الرسول إلى إلقاء خطب طويلة لتوضيح الأمر لهم، ولا لترسيخ مضارها في أذهانهم، لأن الإسلام قد صقل أذهانهم، وخلّصهم من التعصب والأنانية حتى كانت أخطاؤهم تتراءى لأعينهم تلقائيا. فلم يكونوا بحاجة إلى خطاب خطيب أو لصور الفانوس السحري، وإنما تكفيهم إشارة وجيزة وكلمة قصيرة إلى الحق، حتى يتضح وينكشف الأمر لهم تماما. كانت نفوسهم هي واعظهم، وكانت خلايا مخهم هي الشاشة التي يستطيعون بكل سهولة أن يروا على صفحتها مشاهد السّكر والعربدة والهمجية التي تنجم عن تعاطي الخمر. كانوا لا يحتاجون إلى صور كاذبة مزورة، وإنما تكفي الصور الحقيقية لهدايتهم. والحادث التالي خير مثال لبيان ما تركه هذا الأمر الإلهي من تأثير عليهم.

يروي أنس الأنصاري خادم رسول الله (ص) أن أناسا كانوا يشربون الخمر في بيت أبي طلحة، وكنت ساقيهم. فبدءوا يترنحون من الثمالة، فنادى منادٍ أن الخمر قد حُرّمت، فقال بعض القوم: ليذهب أحدنا ويعرف صحة الخبر. وقال آخرون: لا، بل نهريق الخمر أولاً ثم نتحرى عن الخبر. وأمروني بكسر آنية الشراب وإراقة ما فيها، فكسرت جرة الشراب بالعصا، و لم يقترب هؤلاء من الخمر بعد ذلك (مسلم، الأشربة؛ ومسند أحمد ج٣ ص١٨٩).

يبين هذا الحادث مدى تأثير الإسلام على قلوب الناس، فبينما هم في مجلس الشراب قد ثملوا من تعاطي الخمر.. يأتيهم شخص بخبر عن تحريمها، فيسكبونها دون أن يتحروا عن حقيقة الخبر، هذا ليس أمرا عاديا. إن الأمم المدمنة على الخمر تستطيع أن تدرك أهمية هذا الحادث أكثر من غيرها، ذلك لأنه ما دام الذين لا خبرة لهم بتعاطي الخمر يندهشون ويتحيرون من هذا الحادث لهذه الدرجة، فإن الذين لهم خبرة في هذا المجال لا بد أن تكون قلوبهم أكثر إدراكا

لأهميته وعظمته. قارنوا هذا التأثير مع تأثير الأديان والحضارات الأخرى.. ألا تجدون بينهما بعد السماء عن الأرض؟ اليوم وقد أثبتت العلوم الطبيعية مضار الخمر ومفاسدها، ويأمل الناس أن ينهض ترك الخمر بالبلاد وأن يحقق لهم رخاء ماديا.. إلا أنهم غير مستعدين للإقلاع عنها. ولكن المسلم العربي السكران.. ما أن يسمع صوت منادٍ واحد يسير في الطريق قائلا: لقد حُرّمت الخمر، يهبُّ من مجلسه ويكسر الجرار ويجري نهرا من الخمر في شوارع المدينة! اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلم إنك حميد مجيد!

والشيء الثاني الذي نهى الله عنه هنا هو القمار. كان القمار بالنسبة للعرب أول ما تتفتح عليه عينا الوليد. فكلما أرادوا إقامة وليمة كبيرة جمعوا نفقاتها بالقمار. فكان علية القوم وكبراؤهم يلعبون القمار، ومن خسر تحمل نفقات الوليمة. كما كانوا يقترعون عند التجهز للحرب، ومن يخرج سهمه تعيّن عليه تجهيز الطعام للجنود، كما يهيئ لهم الخمور. وكأن الميسر وسيلة لجمع نفقات الحرب.

ولكن الله تعالى نهى المسلمين أيضا عن القمار، لأنه كالخمر.. هي تدمر جسم الإنسان وأخلاقه وروحانيته، والقمار يدمر الأخلاق والحضارة. إن عادة القمار تؤدي إلى خراب آلاف من البيوت والأسر. ثم إن المقامر يعتاد على إضاعة ماله وعقاراته غير مكترث، وقلّما يوجد مقامر يحافظ على أمواله. فهو من ناحية يدمر الآخرين، ومن ناحية يضيع أمواله أيضا ولا ينتفع بها، لأنه لا يبذل جهدا بنّاء لكسب المال. ثم إن القمار يُضعف عقل الإنسان وفكره. والمقامرون عموما مستعدون لتدمير وإضاعة ما لا يُقدم على إضاعته أحد من العقلاء.

قوله تعالى (ويسألونك ماذا ينفقون). عندما نُهي المسلمون عن تعاطي الخمر، وهي أكبر ذريعة لدفع الجنود إلى التهور والاندفاع في الحرب؛ وكذلك نُهوا عن القمار، وهو طريق لسلب أموال الناس لتغطية نفقات الحرب.. لم يشعر المسلمون في قلوبهم بانقباض أو ضيق، وإنما تقدموا خطوة أخرى في مجال

التضحيات، وبدءوا يسألون عن أموالهم التي اكتسبوها بطرق شرعية، ويقولون: أي قدر ننفق منها في سبيل الله، سبق أن مر سؤال مشابه في الآية ٢١٦، لنتذكر أنه كان سؤال عن أقسام الصدقة، أما هنا فالسؤال عن مقدار الصدقة. لما نُهوا عن القمار أدركوا أنه سوف يُفرض عليهم المزيد من التضحيات، فسألوا: سوف ننفق، ولكن بأي مقدار؟ فردّ الله عليهم فقط بكلمة: (العفو).

ويعني العفو ما يزيد من المال على الحاجات الضرورية للإنسان، ولا يشقُّ عليه إنفاقه. ويعني أيضا خيار الشيء وأجوده. ويعني ثالثا ما يُعطى بدون سؤال. ولقد اختلف المفسرون في معاني قول الله هذا.. فمنهم من قال إن المراد من الإنفاق هنا هو الإنفاق في القتال في سبيل الله تعالى، وليس في الصدقات. والمعنى أنه إذا دعت الحاجة للحرب في سبيل الله فقدّموا من أموالكم. ومن المفسرين من قال إن الإنفاق ليس للحرب، وإنما هو للصدقات.

ثم نظراً لاختلافهم في معنى العفو قالوا:

أولا_ أن العفو ما يزيد عن حاجة الإنسان. كان المسلمون في أول الأمر مأمورين بالإنفاق في سبيل الله كان ما يزيد عن حاجتهم لسنة، ولكن بعد نزول آية الزكاة أُلغي هذا الأمر ونَسخت آيةُ الزكاة هذه الآية.

وثانيا_أن هذا الأمر هو عن الزكاة، وذُكر هنا مُجملا، وجاء تفصيله في موضع آخر من القرآن الكريم.

وثالثا_أن العفو يعني المال الذي لا يشقّ على الإنسان إنفاقه.

ورابعا_أن العفو هو إنفاق وسَط، لا يكون قليلا جدا ولا زائدا عن الحد.

وخامسا_أن العفو هو خير المال وأطيبه، فلا تعطوا في سبيل الله مالاً قديما رديئا، أو ما أخذتم من أموال الآخرين.

وسادسا_أن تنفقوا في سبيل الله صدقات وخيرات بانشراح صدر دون أن تُسألوا. والجماعة التي قالت إن معناه ما يزيد عن الحاجة فهُم أيضا طبقوا قول الله هذا على الجهاد أو اعتبروه منسوخا. وكانوا مكرهين على ذلك لأنهم رأوا عمل الصحابة والأمة مخالفا له. كما أن الأحاديث لا تأمر أن ينفق الإنسان كل ما يزيد عن حاجته ويفرّقه على الناس. فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال(يعمد أحدكم إلى ماله لا يملك غيره فيتصدق به ثم يقعد يتكفف الناس. إنما الصدقة عن ظهر غنًى) (الدارمي، الزكاة). وكذلك قال في حديث آخر (إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) (الترمذي،الوصايا). كذلك ورد أن سعد بن أبي وقاص_رضي الله عنه_أراد أن يوصي بجميع ماله في سبيل الله، ولكن الرسول ﷺ نهاه عن ذلك. فقال أوصي بنصفه؟ فمنعه النبي عن ذلك. فقال: بثلث المال؟ فسمح له النبي بذلك وقال الثلث، والثلث كثير (المرجع السابق).

فالظن بأن الإسلام يأمر بأن ينفق الإنسان في سبيل الله ما زاد عن حاجته ظنّ يتنافى مع تعاليم الإسلام ويخالف عمل الصحابة؛ لأن بعضهم ترك لورثته إرثا يبلغ الآلاف (أسد الغابة، ذكر عبد الرحمن بن عوف). ثم لو كان هذا تعليم الإسلام ما كانت هناك حاجة لتشريع الزكاة. ما دام الناس كانوا ينفقون كل ما يزيد عن حاجاتهم في سبيل الله تعالى .. فما الداعي للأمر بأداء الزكاة؟

ثم إن اصطلاح ما يزيد عن الحاجة أيضا اصطلاح مبهم، فبعض الناس لو وقعت في أيديهم الأموال بالآلاف ينفقونها ويرون أنه ليس عندهم مال يزيد عن حاجتهم، وهناك أناس يستثمرون كل أموالهم في التجارة، ولا يبقى بعد الضروريات شيء من المال الزائد.

كما أن العقل أيضا يثبت بطلان هذه الفكرة، لأنه لو لم يكن هناك جماعة من الأثرياء في المجتمع لن يتم الرقي العام للبلد، وأيضا يتضرر الفقراء. لا شك في أن بعض الناس الروحانيين يبذلون أموالهم قدر المستطاع على الفقراء، والإسلام لا

يمنع من ذلك بل يحبذه، ولكن الخطأ القول بأن الإسلام يأمر بإقامة مساواة اقتصادية بين الناس، ويُلزم كل إنسان بإنفاق ما يزيد عن حاجته. ولو سلمنا بما يقولون لوجب أن يتم تحديد الضرورة نظرا للحالة الاقتصادية العامة للبلد، وإلا لو أُعطي كل إنسان الحرية لتحديد ضرورته فلن تتم أيضا أي مساواة مالية بين الناس.. ذلك لأن المرء لو احتفظ بالمال لأطعمةٍ شهية وثياب بهيّة وديار واسعة مزخرفة ورياش ناعمة ومروج جميلة وبساتين مثمرة.. ثم أنفق ما بقي عنده على الفقراء لم يكن في نصيبهم إلا أخشن اللباس وأسوأ المساكن.

الحقيقة أن تعاليم الإسلام تفرض على الحكومة المسلمة ألا يبقى أحد من رعاياها جائعا، وان يجد من الثياب ما يستر به عورته.. أي أن تحافظ الحكومة على حياة الناس حفاظا كاملا، ولذلك فإنها تأخذ الزكاة من أموال الأثرياء وتنفقها على الفقراء. أما إذا أراد الثري أن ينفق أكثر من ذلك فله ما يريد. وإذا رأى أحدهم بعد أداء الزكاة أن شخصا يموت جوعا فمن واجبه أن يسعى بماله لإنقاذ حياته. والدليل على ما ذهبنا إليه موجود في الحديث النبوي. فقد جاء النبيّ ﷺ شخص وسأله: ما الإسلام؟ فذكر النبي له مبادئ الإسلام ومنها الزكاة أيضا. فلما سمع ذلك قال لن أنقص من ذلك ولا أزيد عليه. فقال النبي ﷺ: لقد أفلح إن صدق (مسند أحمد، ج١ ص٢٥٠). فتبين من هذا أنه ليس من واجب الأثرياء أن ينفقوا على الفقراء أكثر من الزكاة، ولكن من أنفق أكثر منها فهذا حسن يثاب عليه.

والحقيقة أن (العفو) يتضمن ثلاثة أحكام لثلاث طبقات من الناس. فالحكم الأول لمن هم على درجة أدنى من الإيمان، فقيل لهم: أنفقوا بالقدر الذي لا يحدث ضررا بإيمانكم ودينكم. لقد رأينا البعض يتحمسون فينفقون في سبيل الحاجات الدينية مالا كثيرا، ولكن عندما يقعون في مشاكل دنيوية يلومون الدين. فالله تعالى يأمر هؤلاء قائلا: بدلا من أن تضيعوا إيمانكم غدا.. عليكم ألا تبسطوا أيديكم اليوم بإنفاق يسبب عثرة لكم.

والحكم الثاني لمن هم على درجة وسطى من الإيمان، فقال لهم: أنفقوا من خير أموالكم في سبيل الله.

والحكم الثالث لمن هم على درجة عليا من الإيمان، فقال لهم: أنفقوا أموالكم في سبيل الله من دون سؤال من أحد. وكأن عليهم أن يكونوا دائما متنبهين إلى الحاجات الدينية والقومية، متأهبين لإنفاق أموالهم في هذه السبيل.

وقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة). الـ "كاف" في (ذلك) ضمير للواحد، مع أن (لكم) خطاب للجماعة. يتبين من ذلك أن القرآن بعض الأحيان يستخدم صيغة الواحد بينما يعني الجمع. يقول أبو حيان اللغوي: وهي لغة العرب يخاطبون الجمع بخطاب الواحد (البحر المحيط). ويقولون: قد كثُر الدراهم والدينار.. أي الدنانير، وكذلك: فقلنا أسلموا إنا أخوكم.. أي إخوتكم، وأيضا: كلوا في نصف بطنكم تعيشوا.. أي بطونكم (الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص١٨٠).

هنا بيّن أنه لما كانت الأحكام الشرعية تؤثر على الحياة الدنيوية وكذلك على الحياة الأخروية.. لذلك نبين لكم أوامرنا بوضوح لكي تتفكروا فيها وتفهموها وتأخذوا كل خطوة على وجه البصيرة، ولا تقبلوا شيئا قبولا أعمى.

وقد يكون قوله (لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) إشارة إلى قوله تعالى (وإثمهما أكبر من نفعهما)، فقال هنا: صحيح أن هناك بعض المنافع في الخمر والميسر.. ولكن مضارها أكثر من الناحية الدنيوية وكذلك من الناحية الدينية، ولقد أعطيناكم الأوامر الأخرى أيضا لمنفعتكم، فعليكم إعمال الفكر والتدبر لتتخيروا طريقا يؤدي إلى النجاح في الدنيا والآخرة.